المدخل إلى دراسة الأدب العربي

مادة مجموعة ومنتقاة من موسوعة اللغة العربية للدرر السنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما بعد:

فهذه المادة مأخوذة من **قسم الأدب في موسوعة اللغة العربية للدرر السنية**، ومعظمها فصول من الباب الأول (المدخل لدراسة الأدب العربي)، وأضيف لها مباحث من الباب الثاني والثالث (الأدب الجاهلي، الأدب في عصر صدر الإسلام)، وليس لنا من عمل فيها إلا التهذيب والاختصار بما يناسب برنامج "بوابة الأدب" وبعض الإضافات اليسيرة لبيان معاني الكلمات الغريبة، وقد اقتصرنا على نقل متن المادة دون الهوامش والمراجع.

وتهدف هذه المادة المختصرة إلى بيان مفهوم الأدب في القديم والحديث، وفائدة دراسة الأدب، وأقسامه، ومصادره، ومناهج دراسة النص الأدبي، والعلاقة بين الأدب والمجتمع، وأسباب الإبداع الأدبي ومعوقاته، والفرق بين الشعر والنثر، وأنواع النثر، ورواية الشعر الجاهلي وتدوينه، وموقف الإسلام من الشعر، وأثره فيه، وخصائص الأدب الجاهلي والإسلامي، وبيان بعض القضايا الأدبية المهمة المرتبطة بالعصر الجاهلي والإسلامي.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المادة تتكامل مع كتاب "المجمل في تاريخ الأدب العربي" المقرر في "بوابة الأدب".

ونسأل الله أن ينفع بهذا العمل ويتقبله ويبارك فيه.

فريق مدارج الأدب 1adabway@gmail.com

الفصل الأول: مفهوم الأدب

المبحث الأول: الأدب لغة

يَرجِعُ أصْلُ كَلِمةِ "الأدَبِ" في اللُّغةِ إلى مَعنى الدُّعاءِ، ومِنه قيلَ للوَليمةِ: مَأدُبةٌ؛ لأنَّ صاحِبَها -وهُو الآدِبُ- يَدْعو النَّاسَ إليها.

ومِنه سُمِّيَ التَّحلِّي بالصِّفاتِ الحَميدةِ ودَعْوةُ النَّاسِ إليها والبُعدُ عنِ الصِّفاتِ الذَّميمةِ أدَبًا؛ قالَ الأزْهَريُّ: (والأدَبُ الَّذي يَتأدَّبُ به الأديبُ مِنَ النَّاسِ، سُمِّيَ أدَبًا؛ لأنَّه يَأدِبُ النَّاسَ الَّذين يَتعلَّمونَه إلى المَحامِدِ، ويَنْهاهم عن المَقابِحِ، يَأدِبُهم، أي: يَدْعوهم).

ولذلك يُطلَقُ الأدَبُ على الظَّرْفِ وحُسْنِ التَّناوُلِ، وهو أدَبُ النَّفْسِ والدَّرْسِ، يُقالُ: أَدُبَ أدَبًا فهو أديبٌ.

المَبحَثُ الثَّاني: الأدَبُ اصْطِلاحًا (بيْنَ القَديمِ والحَديثِ)

كَلِمةُ (أدَب) مِنَ الكَلِماتِ الَّتي تَطوَّرَ مَدْلولُها عبْرَ العُصورِ؛ ففي العَصْرِ الجاهِليِّ وعَصْرِ صدْرِ الإسلامِ اقْتَصرَ مَعنى كَلِمةِ "الأدَب" على ما يُرادُ بها مِن المَعنى اللُّغويِّ الدَّائِرِ بيْنَ الدَّعوةِ إلى الطَّعامِ، وبيْنَ تَهْذيبِ النَّفْسِ والتَّثْقيفِ والتَّحلِّي بمَكارِمِ الأخْلاقِ، وكان الجانِبُ المَعنويُّ للكَلِمةِ أكْثَرَ ذُيوعًا وانْتِشارًا.

وأمَّا العَصْرُ الأُمَويُّ فقدْ عرَفَ لَونًا مِن التَّطوُّرِ الدَّلاليِّ لكَلِمةِ "الأدَب" حينَ صارَ الخُلَفاءُ على عِنايةٍ بتَربيةِ أولادِهم، وإعْدادِهم لوِلايةِ العَهْدِ، وتَولِّي الخِلافةِ، فعَهِدوا إلى أكابِرِ العُلَماءِ في عَهْدِهم ليَقوموا

بتَربيةِ أبْنائِهم، فيُعَلِّموهم أُصولَ العُلومِ الشَّرعيَّةِ واللُّغويَّةِ، ويُطَبِّعوهم على تَمَرُّسِ السِّياسةِ وقِيادةِ النَّاسِ، وإرْشادِهم إلى ما يَليقُ وما لا يَليقُ. وقد شاعت تَسْميةُ هؤلاء العُلَماءِ بالمُؤدِّبينَ، فكان عامِرٌ الشَّعْبيُّ مُؤدِّبًا لأبْناءِ عبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ، وكان عبْدُ الصَّمَدِ بنُ عبْدِ الأعلى مُؤدِّبًا للوَليدِ بنِ عبْدِ العَزيزِ، وكان الجَعْدُ بنُ دِرهَمٍ مُؤدِّبًا لمَروانَ بنِ مُحمَّدٍ.

وقد شاع اسْتِعمالُ كَلِمةِ الأدَبِ بالمَعنى الأخْلاقيِّ في عَصْرِ صدْرِ الإسلامِ وزَمانِ بَني أُميَّةَ والعَباسيِّينَ، حتَّى صدَّرَ المُصنِّفونَ "الأدَب" عُنوانًا لكُتُبِهم أو لِبعضِ أبوابِ كُتُبِهم الَّتي تَتَضمَّنُ صِلةَ الرَّحِمِ، وبرَّ الوالِدَينِ، ورَحْمةَ النَّاسِ، والتَّصدُّقَ على المَساكينِ، والرِّفقَ، وحِفْظَ حقِّ الجارِ، ونَحْوَ ذلك، كما فَعَلَ البُخاريُّ في كِتابِه "الأدَب المُفرَد"، وفي تَرْجَمةِ كِتابِ "الأدَب" في صَحيحِه، ومُسلِمٌ في تَرْجَمةِ كِتابِ "الآداب"، وكِتابِ "البِرِّ والصِّلةِ والآدابِ" مِن صَحيحِه أيضًا، وكذا صَنَعَ أبو داودَ والتِّرْمِذيُّ وابنُ ماجه وغيْرُهم.

إلَّا أنَّه معَ بدايةِ العَصْرِ العَبَّاسيِّ تَطوَّرَ مُصْطلَحُ الأدَبِ تَطوُّرًا مَلْحوظًا؛ إذ كانَ مِن نَتيجةِ النَّهضةِ العِلميَّةِ والثَّقافيَّةِ آنَذاك أن أصْبَحَ الأدَبُ عَلَمًا على لَونٍ مِن ألوانِ الكَلامِ والكِتابةِ، وعِلمًا مِن عُلومِها، وهو كلُّ كَلامٍ بَليغٍ مِن الشِّعرِ والنَّثرِ، وما اتَّصلَ بهما مِن الشَّرحِ والنَّقْدِ والتَّعْليقِ ونَحْوِه.

ولِهذا ذَكَرَ ابنُ خَلْدونَ في تَعْريفِ الأدَبِ: (هذا العِلمُ لا مَوْضوعَ له يَنظُرُ في إثْباتِ عَوارِضِه أو نَفْيِها، وإنَّما المَقْصودُ مِنه عنْدَ أهْلِ اللِّسانِ ثَمَرتُه، وهي الإجادةُ في فَنَّيِ المَنْظومِ والمَنْثورِ على أساليبِ العَربِ ومَناحيهم، فيَجْمعونَ لذلِك مِن كَلامِ العَربِ ما عَساه تَحصُلُ به الكَلِمةُ مِن شِعرٍ عالي الطَّبَقةِ، وسَجْعٍ مُتساوٍ في الإجادةِ، ومَسائِلَ مِن اللُّغةِ والنَّحْوِ مَبْثوثةٍ في أثْناءِ ذلك مُتَفرِّقةٍ، يَستقرِئُ مِنها النَّاظِرُ في الغالِبِ مُعظَمَ قَوانينِ العَربيَّةِ، معَ ذِكْرِ بعضٍ مِن أيَّامِ العَربِ، يُفهَمُ به ما يَقَعُ في أشْعارِهم مِنها،

وكذلك ذِكْرُ المُهمِّ مِن الأنْسابِ الشَّهيرةِ والأخْبارِ العامَّةِ. والمَقْصودُ بذلك كلِّه ألَّا يَخْفى على النَّاظِرِ فيه شيءٌ مِن كَلامِ العَربِ وأساليبِهم ومَناحي بَلاغتِهم إذا تَصفَّحَه؛ لأنَّه لا تَحصُلُ المَلَكةُ مِن حِفْظِه إلَّا بعْدَ فَهْمِه، فيُحتاجُ إلى تَقْديمِ جَميعِ ما يَتوقَّفُ عليه فَهْمُه، ثُمَّ إنَّهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفَنِّ قالوا: "الأدَبُ هو حِفْظُ أشْعارِ العَربِ وأخْبارِها، والأخْذُ مِن كلِّ عِلمٍ بطرَفٍ"؛ يُريدون: مِن عُلومِ اللِّسانِ أو العُلومِ الشَّرعيَّةِ مِن حيثُ مُتونُها فقط، وهي القُرآنُ والحَديثُ؛ إذ لا مَدخَلَ لغيْرِ ذلك مِن العُلومِ في كَلامِ العَربِ إلَّا ما ذهَبَ إليه المُتأخِّرونَ عنْدَ كَلَفِهم بصِناعةِ البَديعِ مِن التَّوريةِ في أشْعارِهم، وتَرَسُّلِهم بالاصْطِلاحاتِ العِلميَّةِ، فاحتاجَ صاحِبُ هذا الفَنِّ حينَئذٍ إلى مَعْرفةِ اصْطِلاحاتِ العُلومِ؛ ليكونَ قائمًا على فَهْمِها).

فنَجِدُ مَثَلًا أبا العبَّاسِ المُبَرِّدَ إمامَ اللُّغةِ المُتوفَّى سَنةَ 258ه يُؤلِّفُ كِتابًا يُسمِّيه: "الكامِلَ في اللُّغةِ والأدَبِ"، يقولُ في مُقدِّمتِه: (هذا كِتابٌ ألَّفْناه، يَجمَعُ ضُروبًا مِن الآدابِ ما بيْنَ كَلامٍ مَنْثورٍ، وشِعْرٍ مَوْصوفٍ، ومَثَلٍ سائرٍ، ومَوْعظةٍ بالِغةٍ، واخْتِيارٍ مِن خُطبةٍ شَريفةٍ، ورِسالةٍ بَليغةٍ...)، وغيْرُ ذلك الكَثيرُ.

بل إنَّ الأمْرَ قدِ استتَبَّ بعْدَ ذلك واشتَهرَتْ تَسْميةُ الأعْمالِ الشِّعريَّةِ والنَّثريَّةِ بالأدَبِ، حتَّى قال المُتَنبِّي مُفاخِرًا:

أنا الَّذي نظَرَ الأعْمى إلى أدَبي وأَسمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

المَبحَثُ الثَّالِثُ: مَفْهومُ الأدَبِ في العَصْرِ الحَديثِ

للأدَبِ في الاصْطِلاحِ الحَديثِ مَعنيان بارِزان؛ مَعنًى عامٌّ، وآخَرُ خاصٌّ.

فيُطلَقُ الأدَبُ في المَعنى العامِّ على كُلِّ ما أنْتَجَه العَقْلُ الإنْسانيُّ في أيِّ مَيْدانٍ مِن مَيادينِ العُلومِ والفُنونِ؛ كالفَلسفةِ والمَنطِقِ وعِلمِ الاجتِماعِ والرِّياضيَّاتِ وعُلومِ الطَّبيعةِ، وكذا فُنونُ الشِّعرِ والكِتابةِ

ونَحْوُها، وهو بِهذا المَعنى مُرادِفٌ لمُصْطلَحِ الثَّقافةِ.

ومِن هذا المَنْحى نَجِدُ كارل بروكلمان يقولُ: (يُمكِنُ إطلاقُ لفْظِ الأدَبِ بأوْسَعِ مَعانيه على كُلِّ ما صاغَه الإنسانُ في قالَبٍ لُغويٍّ؛ ليُوصِلَه إلى الذَّاكِرةِ).

وقد سبَقَ إلى ذلك الشُّمولِ بعضُ عُلَماءِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ قَديمًا، كما يَظهَرُ مِن تَأليفِ كُشاجِمَ؛ شاعِرِ الدَّولةِ الحَمْدانيَّةِ وطبَّاخِ سَيْفِ الدَّولةِ كِتابَه: "أدَب النَّديم"؛ إذ أوْدَعَه ما لا يَسْتغني عنه شَريفٌ، ولا يَجوزُ أن يُخِلَّ به ظَريفٌ.

وظهَرَ ذلك أيضًا في قَولِ أبي القاسِمِ الشَّجَريِّ، أحَدِ شُعراءِ القَرْنِ الرَّابعِ الهِجريِّ:

إنْ شِئْتَ تَعلَمُ في الآدابِ مَنزِلتـــــي وأنَّني قد عَداني العِزُّ وَالنِّعَـــــمُ

فالطِّرْفُ والسَّيْفُ والأَوْهاقُ تَشهَدُ لي والعُودُ والنَّرْدُ والشِّطْرَنْجُ والقَلَمُ

فأدخَلَ في الآدابِ فُنونًا وألْعابًا وغيْرَ ذلك.

وأمَّا المَعنى الخاصُّ للأدَبِ فيُرادُ به: النِّتاجُ العاطِفيُّ الَّذي يُعبِّرُ فيه صاحِبُه بالألفاظِ عن شُعورٍ عاطِفيٍّ، وفيه إثارةٌ للقارِئِ والسَّامِعِ، أيْ ذلِك التَّعبيرُ العاطِفيُّ المُثيرُ، وهذا يكونُ عادةً في الشِّعْرِ الرَّائِعِ والنَّثْرِ البَليغِ. وعلى المَعنى الخاصِّ وجَدْنا العَديدَ مِن تَعْريفاتِ الأدَبِ تَختلِفُ في مَبْناها، إلَّا أنَّها في الغالِبِ تَتَّفِقُ في المَعنى، ومِن ذلك:

قيل: (أدَبُ لُغةِ كُلِّ أُمَّةٍ: هو ما أُودِعَ نَثْرَها وشِعْرَها مِن نَتائِجِ عُقولِ أبنائِها، وأمْثِلةِ طِباعِهم، وصُوَرِ أخيِلَتِهم، ومَبلَغِ بَيانِهم، ممَّا شأنُه أن يُهذِّبَ النَّفْسَ، ويُثقِّفَ العَقْلَ، ويُقوِّمَ اللِّسانَ).

ويُعرِّفُه د. شوقي ضيف بأنَّه: (الكَلامُ الإنْشائيُّ البَليغُ، الَّذي يُقصَدُ به التَّأثيرُ في عَواطِفِ القُرَّاءِ والسَّامِعين، سواءٌ أكان شِعرًا أم نَثْرًا).

ويَرى د. مُحمَّد غنيمي أنَّ الأدَبَ حتَّى يَصِحَّ أن يُقالَ عنه أدَبٌ لا بُدَّ أن يَتوفَّرَ على عُنْصُرَينِ؛ الفِكرةِ، والقالَبِ الفنِّيِّ الَّذي تُصاغُ فيه؛ قال: (أمَّا الأدَبُ فكَثيرًا ما اختَلَفَ الباحِثون في تَعْريفِه، وطالَ جِدالُهم فيه... ولكنْ مَهْما يَكنْ بيْنَهم مِن اخْتِلافٍ فهُمْ لا يُمارونَ في تَوافُرِ عُنْصرَينِ في كلِّ ما يَصِحُّ أنْ نُطلِقَ عليه أدَبًا؛ هُما: الفِكرةُ وقالَبُها الفنِّيُّ، أو المادَّةُ والصِّيغةُ الَّتي تُصاغُ فيها. وهذانِ العُنْصُرانِ يَتمثَّلانِ في جَميعِ صُوَرِ الإنتاجِ الأدَبيِّ؛ سَواءٌ أكانَ تَصْويرًا لإحْساساتِ الشَّاعِرِ وخَلَجاتِ نفْسِه تِجاهَ عَظَمةِ الكَوْنِ وما فيه مِن جَمالٍ وأسرارٍ، أم كانَ تَعْبيرًا عن أفكارِ الكاتِبِ في الإنسانِ والمُجْتمَعِ، وسَواءٌ كان ذلك الإنتاجُ الأدَبيُّ رِسالةً أو مَقالةً، أم مَسْرحيَّةً أو قِصَّةً...).

ويُعرِّفُه د. عُمَر فرُّوخ بقولِه: (الأدَبُ هو المَعنى المُبتكَرُ في اللَّفظِ الفَصيحِ، والتَّعْبيرِ المَتينِ، والأُسلوبِ البارِعِ، والخَيالِ الواسِعِ).

والمَلْحوظُ في جَميعِ تلك التَّعْريفاتِ أنَّها تَحصُرُ الأدَبَ في الفِكرةِ وطَريقةِ التَّعْبيرِ؛ فلا بُدَّ في الفِكرةِ مِن أن تكونَ مُعبِّرةً عن أمْرٍ نفْسيٍّ يَجِدُه الأديبُ في نفْسِه، ويُعبِّرُ مِن خِلالِه عن عاطِفتِه تِجاهَ الحَياةِ أو الإنْسانِ أو المُجتَمَعِ وقَضاياه، وفي الطَّريقةِ والأُسلوبِ أن يكونَ بَليغًا يُؤدِّي الغَرَضَ، ويُطابِقُ مُقْتضى الحالِ، دونَ الإغْرابِ والإخْلالِ، والإطْنابِ المُمِلِّ.

وهذا التَّعْريفُ الخاصُّ للأدَبِ هو الَّذي عليه اللُّغويُّونَ وأهْلُ البَلاغةِ والأدَبِ.

الفَصْلُ الثَّاني: فائِدةُ دِراسةِ الأدَبِ

دِراسةُ الأدَبِ العَربيِّ ليست مِن قَبيلِ التَّرَفِ العِلميِّ فحَسْبُ، بل لها فَوائِدُ غَزيرةٌ تَعودُ على الفَرْدِ والمُجْتمَعِ على حَدٍّ سواءٍ؛ إذِ الأدَبُ ما هو إلَّا تَعْبيرٌ عن النَّفْسِ وآمالِها وآلامِها، وعن الواقِعِ بمُكَوِّناتِه ومُشْكِلاتِه، وعن القِيَمِ بأُصولِها وفُروعِها وتَشابُكِها معَ الحَياةِ... وهذا كلُّه بأُسلوبٍ مُنمَّقٍ يَجذِبُ القارِئَ والمُستمِعَ ويُؤثِّرُ فيه، فنحن إذْ نَدرُسُ أدَبَ الأُمَّةِ العَربيَّةِ إنَّما نَدرُسُ خُلاصةَ عُقولِها ونَفْسيَّاتِها وواقِعِها وتَجرِبتِها الطَّويلةِ في الحَياةِ (فأدَبُ أيِّ أُمَّةٍ هو نِتاجُ عَواطِفِها ومَشاعِرِها وعُقولِها، وهو عُصارةُ مِزاجِها النَّفْسيِّ، وطابَعُ رُوحِها... فهو خُلاصةُ وِجهةِ نَظَرِها في الحَياةِ مُستمَدَّةً مِن داخِلِها).

وانْطِلاقًا مِن هذه المَعاني يُمكِنُنا إجْمالُ فَوائِدِ دِراسةِ الأدَبِ فيما يأتي:

1 – دِراسةُ الأدَبِ تُعِينُ على فَهْمِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وتَذوُّقِها، والوُقوفِ على تاريخِها، وتاريخِ الفُصَحاءِ والبُلَغاءِ مِن أهْلِها، على اختِلافِ عُصورِهم وأحْوالِهم وأساليبِهم.

2 – تَكسِبُ دِراسةُ الأدَبِ صاحِبَها المَلَكةَ اللُّغويَّةَ السَّليمةَ، وتَرْتقي بجَودةِ خِطابِه، ورَصانةِ تَعْبيرِه.

3 – تُنَمِّي دِراسةُ الأدَبِ في نفْسِ صاحِبِها المَعانيَ الإنْسانيَّةَ الرَّاقيةَ، وتَكسِبُه الحِسَّ الجَماليَّ، فتَرْتقي به في جَوانِبِ الحَياةِ المَعْنويَّةِ والرُّوحيَّةِ، كما ارتَقَتْ بالجَوانِبِ اللُّغويَّةِ التَّعْبيريَّةِ عِنْدَه.

4 – تُعِينُ على مَعْرفةِ أسْبابِ ارْتِقاءِ اللُّغةِ وانْحِطاطِها، على اخْتِلافِ وتَنوُّعِ هذه الأسْبابِ؛ لتُصبِحَ هذه المَعْرفةُ وَسيلةً لسُلوكِ سُبُلِ الارْتِقاءِ، واجْتِنابِ أسْبابِ الانْحِطاطِ.

5 – تَتَبُّعُ تاريخِ الأدَبِ والأُدباءِ مَصدَرٌ غَنِيٌّ مِن مَصادِرِ دِراسةِ التَّاريخِ بوَجْهٍ عامٍّ، والوُقوفِ على كَثيرٍ مِن أحْداثِه على لِسانِ مَن عاصَرَ وعايَشَ هذه الأحْداثَ.

6 – تَجْسيدُ الأدَبِ للقِيَمِ الإنْسانيَّةِ والتَّجارِبِ الحَياتيَّةِ المُخْتلِفةِ في كلِّ عَصْرٍ مِن العُصورِ يَكسِبُ

الدَّارِسَ الفَهْمَ العَميقَ للقِيَمِ وللإنْسانِ بصورةٍ عَمَليَّةٍ مَلْموسةٍ؛ إذ يُمكِنُ القَولُ بأنَّ أدَبَ أيِّ أُمَّةٍ إنَّما يُشكِّلُ ضَميرَ الأُمَّةِ، إضافةً إلى القِيَمِ الفِكريَّةِ والرُّوحيَّةِ الَّتي تَعْتنِقُها، إضافةً لجَوهَرِ اللُّغةِ.

7- الأدَبُ أحَدُ أعظَمِ أسْبابِ حِفْظِ اللُّغةِ، واللُّغةُ بمَنزِلةِ العَمودِ الفِقْريِّ الَّذي يَشُدُّ جَسَدَ أبْناءِ الأُمَّةِ، ويَحفَظُ عليه تَماسُكَه وثَباتَه؛ ومِن هذا المَنْحى فإنَّ دِراسةَ الأدَبِ سَبيلٌ لحِفْظِ وَحْدةِ الأمَّةِ واسْتِمرارِها.

الفصل الثالث: مكونات العمل الأدبي

يَتميَّزُ النَّصُّ الأدَبيُّ مِن غيْرِه مِنَ العُلومِ والفُنونِ بعَدَدٍ مِنَ الخَصائِصِ أو المُكوِّناتِ، الَّتي تَجتمِعُ فتُشكِّلُ بِنْيتَه، وتَكسِبُه التَّميُّزَ مِن غيْرِه، ومِن خِلالِ هذه الخَصائِصِ أو المُكوِّناتِ يُمكِنُنا الحُكْمُ على كَوْنِه ضِمْنَ فَنِّ الأدَبِ أو خارِجًا عنه، وهذه المُكوِّناتُ هي:

المَبحَثُ الأوَّلُ: العاطِفةُ

والمَقْصودُ بالعاطِفةِ :ذلِك الشُّعورُ النَّفْسيُّ الَّذي يَعرِضُ للأديبِ نَتيجةَ مَوقِفٍ أو حَدَثٍ مُعيَّنٍ، فيَنْطلِقُ مِن خِلالِه في عَمَلِه الأدَبيِّ، مُحاوِلًا تَصْويرَه للمُتلقِّي.

والعاطِفةُ بوَجْهٍ عامٍّ حالةٌ وِجدانيَّةٌ تَعرِضُ لجَميعِ النَّاسِ؛ كالفَرَحِ والحُزْنِ، والشَّوْقِ والغَضَبِ، والحَنينِ والوَحْدةِ، ونَحْوِ ذلك، ويَمتازُ الأديبُ بقُدرتِه على تَصْويرِ هذه الحالةِ بإحدى صُوَرِ الأدَبِ، وكُلَّما كانتِ العاطِفةُ نَبيلةً راقيةً في السَّببِ والغايةِ، ارْتَقى بها أدَبُ الأديبِ، كتلك العاطِفةِ الجَيَّاشةِ الَّتي تُحرِّكُ الأديبَ ليَكتُبَ عن الجُودِ والإقْدامِ والنَّجْدةِ، ونَحْوِ ذلك، والعَكْسُ صَحيحٌ؛ فرُبَّما انْعَدمتِ العاطِفةُ أو ضَعُفَتْ جدًّا، وذلك إذا كان غَرَضُ الأديبِ التَّكَسُّبَ بأدَبِه أوِ التَّقرُّبَ والمُداهَنةَ والتَّملُّقَ، وهذا يُؤثِّرُ غالِبًا في أدَبِ الأديبِ وإن حبَّرَه تَحْبيرًا.

المَبحَثُ الثَّاني: الفِكرةُ

ورُبَّما قيلَ لها: المَعنى أوِ الحَقيقةُ، وهي المَضْمونُ الَّذي يُعبِّرُ عنه الأديبُ في مَوْضوعِه، وهي الأساسُ الَّذي يَنْبني عليه العَمَلُ الأدَبيُّ، وهي الَّتي يُحكَمُ مِن خِلالِها على الشَّاعِرِ والنَّاثِرِ بالابْتِكارِ والتَّقْليدِ والسَّرِقةِ. وإذا كانتِ العاطِفةُ هي العُنصُرَ الوِجدانيَّ القَلْبيَّ في العَمَلِ الأدَبيِّ، فإنَّ الفِكرةَ هي العُنصُرُ

العَقْليُّ فيه. والفِكرةُ عُنصُرٌ رَئيسٌ في جَميعِ الفُنونِ الإقْناعيَّةِ والتَّعْليميَّةِ؛ كالمُحاضَراتِ والمَقالاتِ، وكُتُبِ النَّقْدِ والتَّاريخِ، وفي الأدَبِ كذلك.

المَبحَثُ الثَّالِثُ: الأُسلوبُ

الأُسلوبُ في العَمَلِ الأدَبيِّ هو الرِّداءُ الَّذي يَكْسو الشَّاعِرُ به عاطِفتَه وفِكرتَه، فتَظهَرُ في مَظهَرٍ حَسَنٍ يَتوافَقُ معَ حُسْنِ باطِنِها، أو القالَبُ الَّذي تُصَبُّ فيه المادَّةُ الأدَبيَّةُ بمُشتمَلاتِها؛ فالأُسلوبُ يَبدَأُ مِن اخْتِيارِ طَريقةِ التَّعْبيرِ عنِ الفِكرةِ؛ سواءٌ كانَتْ شِعرًا أو رِسالةً، أو مَقامةً أو خُطْبةً أو قِصَّةً، وغيْرَ ذلك مِن ألوانِ النَّثْرِ وفُنونِه.

ثُمَّ يَمتَدُّ بَعْدَ ذلك ليَشمَلَ طَريقةَ اخْتِيارِ الألفاظِ والتَّراكيبِ، ووَزْنَ البَحْرِ وقافِيتَه، والتَّفْضيلَ بيْنَ الإيجازِ والإطْنابِ، وتَزْيينَ الكَلامِ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ ومَشْهورِ أشْعارِ العَربِ وأقْوالِهم، بل إنَّه يَدخُلُ فيه اسْتِعمالُ الحَقيقةِ والمَجازِ بصُوَرِه وصِيَغِه.

وهذا العُنصُرُ هو الَّذي يُميِّزُ الأديبَ من غيْرِه؛ فمَهْما اتَّفقَتِ العَواطِفُ يبقى لِكلِّ أديبٍ طابَعُه الخاصُّ في صِياغةِ أعْمالِه، ومِنَ الأدَباءِ مَنْ يَميلُ إلى السُّهولةِ واليُسْرِ في اخْتِيارِ ألفاظِه وصِياغةِ الجُمَلِ، ومِنهم مَنْ يَميلُ إلى التَّشْديدِ والصُّعوبةِ. والأديبُ النَّاجِحُ هو الَّذي صارَتْ له بَصْمةٌ عِنْدَ القُرَّاءِ، بحيثُ إذا وقَفوا على قِطعةٍ أدَبيَّةٍ دونَ أن تُنسَبَ لأديبٍ مُعيَّنٍ، اسْتَطاعَ القارِئُ المُطَّلِعُ أن يُرَجِّحَ نِسْبتَها للأديبِ بِناءً على نَزْعتِه الأدَبيَّةِ وأُسلوبِه الفَريدِ الَّذي يَختَصُّ به دونَ غَيْرِه.

ومِن جِهةٍ أخرى فإنَّ لِكلِّ مَوْضوعٍ مِنَ المَوْضوعاتِ الأدَبيَّةِ أُسلوبَه الخاصَّ؛ فالشِّعرُ يَخْتلِفُ عنِ النَّثْرِ، وكلُّ لَونٍ مِن ألوانِ الشِّعرِ أوِ النَّثْرِ يَخْتلِفُ عن غيْرِه، وبِناءً على ذلك يُمكِنُ القَولُ: إنَّ هناك

عامِلَينِ رَئيسَينِ يُؤثِّران في الأُسلوبِ؛ أحَدُهما يَرجِعُ إلى شَخْصيَّةِ الأديبِ وذَوْقِه وبيئتِه، والثَّاني يَرجِعُ إلى طَبيعةِ المَوْضوعِ الأدَبيِّ نفْسِه.

المَبحَثُ الرَّابعُ: الخَيالُ

الخَيالُ هو اللُّغةُ التَّصْويريَّةُ في العَمَلِ الأدَبيِّ، فهو يُمثِّلُ القُوَّةَ الَّتي مِن خِلالِها يُجسِّدُ الأديبُ المَعانيَ والأشْياءَ والأشْخاصَ، ويُمثِّلُها في قَوالِبَ أدَبيَّةٍ تَنطِقُ بالفِكرةِ وتُجسِّدُها للمُتلقِّي، حتَّى تُثيرَ مَشاعِرَه وتُحرِّكَ وِجدانَه. والخَيالُ مِن أساسيَّاتِ أيِّ عَمَلٍ أدَبيٍّ.

ويَظهَرُ الخَيالُ في الأعْمالِ الأدَبيَّةِ في تَصْويراتٍ مُحْكَمةٍ تَسْتعينُ بالتَّشْبيهِ والمَجازِ والاسْتِعارةِ والكِنايةِ ونَحْوِها مِن فُنونِ البَلاغةِ الَّتي تُضْفي الحَياةَ على الأفْكارِ وتَجعَلُها مُتحرِّكةً؛ تَمْشي وتَتألَّمُ وتُفكِّرُ، ونَحْوُه. ومِن الأمْثِلةِ على ذلِك قولُ أبي ذُؤَيبٍ الهُذَليِّ في المَوْتِ:

وإذا المَنيَّةُ أَنشبَتْ أَظْفارَهـــــــا   أَلْفيْتَ كُلَّ تَميمةٍ لا تَنفَـــــــــعُ

تَمْثيلٌ لمُكوِّناتِ العَمَلِ الأدَبيِّ:

إذا نَظَرْنا إلى تلك الأبْياتِ للشَّاعِرِ كُثَيِّرِ بنِ عبْدِ الرَّحمنِ، المَعْروفِ بكُثَيِّرِ عَزَّةَ، الَّتي يقولُ فيها:

وإنِّي وتَهْيامي[1] بِعَزَّةَ بَعْدَمـــــــا   تَخلَّيْتُ عمَّا بَيْننا وتَخلَّـــــــتِ

لَكالمُرْتَجي ظِلَّ الغَمامةِ كُلَّمـــا   تَبوَّأَ مِنها لِلمَقيلِ اضْمَحلَّـــــتِ

---

1 التَهيام: مصدر للمبالغة من الهيام.

كأنِّي وإيَّاها سَحابةُ مُمحِـــــــلٍ[2]   رَجاها فلمَّا جاوَزَتْهُ اسْتَهلَّـــتِ[3]

نَرى أنَّ العاطِفةَ المُسيطِرةَ على الشَّاعِرِ هي اليَأسُ وفِقْدانُ الأمَلِ، مَصْحوبًا بالحُزْنِ وشِدَّةِ الغَضَبِ، وتَتَجلَّى فِكرتُه الَّتي بَنى مَوْضوعَه عليها في عَدَمِ القُرْبِ مِن مَحْبوبتِه، وأنَّه كلَّما اقْتَربَ ما يُؤذِنُ باللِّقاءِ، ويَبُثُّ الأمَلَ في النَّفْسِ، يَتلاشى تارِكًا خَلْفَه الحَسْرةَ واليَأسَ.

وقد برَعَ الشَّاعِرُ في اسْتِعمالِ أُسلوبِه؛ حيثُ صَوَّرَ تلك المَعانيَ في كِساءٍ شِعريٍّ لَطيفٍ، اسْتَهلَّه بالتَّوْكيدِ ب(إنَّ)، ودبَّجَه بالخَيالِ المُتمَثِّلِ في اسْتِعمالِ التَّشْبيهِ الضِّمْنيِّ؛ حيثُ صَوَّرَ نفْسَه في حالِ تَرْكِه لِعزَّةَ وتَرْكِها له بصورةِ المُنْفرِدِ في الصَّحْراءِ، حيثُ اسْتَبْشَرَ لمَّا رأى غَمامةً تَؤُمُّه بظِلِّها، تُغيثُه مِنَ الحَرِّ الَّذي أصابَه، فلمَّا دَنا مِنها، وتَهيَّأَ لأنْ يَقيلَ تحتَها ساعةً، أَقْشعَتْ وتَلاشَتْ عنه، وبِصورةٍ أخرى، وهي صورةُ العَطْشانِ الَّذي يَرْجو نُزولَ المَطَرِ ليَسْقيَه ويَرْويَ أرْضَه، فلمَّا دَنتْ مِنه السَّحابةُ المُحمَّلةُ بالمَطَرِ جاوَزَتْه وانْصَرفَتْ عنه إلى غيْرِه!

كما أحْسَنَ الشَّاعِرُ في اخْتِيارِ أساليبِ الرَّبْطِ وأدَواتِ الشَّرْطِ، وفي التَّنْويعِ بيْنَ الجُملةِ الاسْميَّةِ والفِعليَّةِ، وغيْرِ ذلك.

---

2 سحابةُ ممحلٍ: سحابة بلد ممحل أي مجدب. (ديوان كثير عزة، شرح: إحسان عباس)

3 استهلَّت: بدأت بإرسال المطر، شبه نفسه بالبلد الممحل وصاحبته بالسحابة. (المرجع السابق)

الفصل الرابع: أقسام الأدب

عُنِيَ العُلَماءُ بالأدَبِ والأُدَباءِ عبْرَ العُصورِ، وكَثُرَتِ المُؤلَّفاتُ والدِّراساتُ المُتعلِّقةُ بهذا الشَّأنِ، وقد تَعدَّدتْ مَداخِلُ العُلَماءِ لتَقْسيمِ الأدَبِ، ودِراستِه دِراسةً عِلميَّةً وافيةً. وهناك اتِّجاهانِ رَئيسانِ نَلمَحُهما في تَقْسيمِ الأدَبِ العَربيِّ؛ الأوَّلُ: التَّقْسيمُ الزَّمَنيُّ التَّاريخيُّ، والثَّاني: التَّقْسيمُ الفنِّيُّ المَوْضوعيُّ.

المَبحَثُ الأوَّلُ: التَّقْسيمُ التَّاريخيُّ للأدَبِ

يُعَدُّ هذا التَّقْسيمُ المَدخَلَ الأشْهَرَ لِدراسةِ الأدَبِ دِراسةً تاريخيَّةً، وفيه يُقسَّمُ تاريخُ الأدَبِ إلى عُصورٍ أو مَراحِلَ تاريخيَّةٍ، وفي كلِّ مَرْحلةٍ يَقِفُ فيها الباحِثُ على تاريخِ الأدَبِ العَربيِّ بأحْداثِه ومَوْضوعاتِه ورِجالِه وآثارِه، وفي أثْناءِ ذلك يَرصُدُ تَطوُّرَ الأدَبِ ومَراحِلَ ازْدِهارِه وخُمولِه مُنْذُ القِدَمِ، وعَبْرَ العُصورِ التَّاريخيَّةِ الكُبرى الَّتي مَرَّ بها حتَّى يومِنا هذا.

وقد درَجَ مَنْ أرَّخَ للأدَبِ على هذه الطَّريقةِ -في الأغْلَبِ- على تَقْسيمِ تاريخِ الأدَبِ إلى عُصورٍ رَئيسةٍ، وهي:

1- **العَصْرُ الجاهِليُّ** :وهو الحِقبةُ الَّتي تَسبِقُ ظُهورَ الإسلامِ بقُرابةِ قَرنَينِ مِنَ الزَّمانِ.

2- **العَصْرُ الإسْلاميُّ** :ويَبدَأُ هذا العَصْرُ بظُهورِ الإسلامِ، ويَمتَدُّ إلى نِهايةِ عَهْدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ، وبدايةِ الدَّولةِ الأُمَويَّةِ.

3- **العَصْرُ الأُمَويُّ** :ويَبدَأُ بقِيامِ الدَّولةِ الأُمَويَّةِ بدايةً مِن سَنةِ 41ه، ويَمتَدُّ إلى سُقوطِها عامَ 132ه.

4- العَصْرُ العبَّاسيُّ :ويَبدَأُ هذا العَصْرُ بِقِيامِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ سَنةَ 132ه، ويَنْتهي بسُقوطِ بَغْدادَ على يَدِ التَّتارِ سَنةَ 656ه.

ومِن المُؤرِّخين مَن يُقسِّمُ هذا العَصْرَ إلى قِسمَينِ:

-**العَصْرُ العبَّاسيُّ الأَوَّلُ** :وهو قُرابةُ مِئةِ سَنةٍ مِن قِيامِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ.

-**والعَصْرُ العبَّاسيُّ الثَّاني** :وهو بَقيَّةُ عُمرِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ حتَّى سُقوطِها.

5- عَصْرُ الدُّوَلِ والإماراتِ :وتَتَنوَّعُ مُسمَّياتُ الكُتَّابِ لِهذا العَصْرِ، وهي على اخْتِلافِ مُسمَّياتِها تُعبِّرُ عن المُدَّةِ ما بيْنَ سُقوطِ الخِلافةِ العبَّاسيَّةِ إلى خُروجِ الاحْتِلالِ الفَرنسيِّ مِن مِصْرَ، وقِيامِ حُكْمِ مُحمَّد علي باشا.

وفي هذه المُدَّةِ قامَتِ العَديدُ مِن الدُّوَلِ والإماراتِ في العالَمِ الإسلاميِّ؛ كالفاطِميِّينَ والأَيُّوبيِّينَ، والمَماليكِ والعُثْمانيِّينَ، وغيْرِهم.

6- العَصْرُ الحَديثُ :وهو العَصْرُ الَّذي يَبدَأُ بنِهايةِ الاحْتِلالِ الفَرنسيِّ لمِصْرَ، وقِيامِ حُكْمِ مُحمَّد علي باشا بعْدَه، وذلِك في مَطلَعِ القَرْنِ التَّاسِعَ عشَرَ المِيلاديِّ، ويَمتَدُّ إلى يومِنا هذا.

وهذا التَّقْسيمُ التَّاريخيُّ هو الأشْهَرُ، على اخْتِلافٍ يَسيرٍ بيْنَ الباحِثينَ في مُسمَّياتِ بعضِ العُصورِ، وتَحْديدِ بداياتِها ونِهاياتِها.

المَبحَثُ الثَّاني: التَّقْسيمُ المَوْضوعيُّ

والمَقْصودُ به تَقْسيمُ الأدَبِ العَربيِّ باعْتِبارِ مَوْضوعاتِه إلى قِسْمَينِ؛ (شِعْر ونَثْر). والشِّعرُ هو الكَلامُ المَوْزونُ المُقفَّى، الَّذي يَخضَعُ لقَواعِدَ وقَوانينَ مُعيَّنةٍ، لا يُلزَمُ النَّثْرُ بها. وأمَّا النَّثْرُ فعلى النَّقيضِ؛

حيثُ يَنعَمُ بالحُريَّةِ دونَ تَقيُّدٍ بقَواعِدِ الوَزْنِ والقافيةِ، معَ اتِّسامِه بحُسْنِ الصِّياغةِ وجَمالِ الأداءِ؛ ولِهذا فلا تَجوزُ فيه مُخالَفةُ اللُّغةِ العَربيَّةِ، خِلافًا للشِّعرِ؛ حيثُ يَجوزُ فيه لضَرورةِ الوزنِ أن يُخالِفَ القَواعِدَ.

ولكلٍّ مِنَ الشِّعْرِ والنَّثْرِ أنْواعٌ وصُوَرٌ مُتَعدِّدةٌ، ولكلٍّ رِجالُه الَّذين أثْرَوُا الحَياةَ الأدَبيَّةَ العَربيَّةَ بعَطاءاتِهم.

الفَصْلُ الخامِسُ: مَصادِرُ الأدَبِ

المَصادِرُ الأدَبيَّةُ هي الكُتُبُ والمَوْسوعاتُ الَّتي حَوَتْ كلَّ ما يَتَّصِلُ بالأدَبِ العَربيِّ مِن عُلومٍ وفُنونٍ، والَّتي يَستمِدُّ مِنها الباحِثُ في الأدَبِ العَربيِّ مادَّةَ بَحْثِه، ويَجِدُ طالِبُ العِلمِ فيها بُغْيتَه.

والمَكتبةُ الأدَبيَّةُ العَربيَّةُ تَحْوي كمًّا هائِلًا مِنَ المَصادِرِ الأدَبيَّةِ، ومِن أشْهَرِ هذه المَصادِرِ ما يأتي:

1- **كُتُبُ الدَّواوينِ والأعْمالِ الشِّعريَّةِ** :سواءٌ كانَتْ جامِعةً لشِعرِ شاعِرٍ بعَيْنِه؛ كامْرِئِ القَيْسِ، أو كانَتْ جامِعةً لعِدَّةِ شُعَراءَ، مِثلُ ديوانِ الهُذَليِّينَ الَّذي يَجمَعُ شِعْرَ شُعَراءِ قَبيلةِ هُذَيلٍ، وعلى رأسِهم أبو ذُؤَيبٍ الهُذَليُّ، ومِثلُ المُعَلَّقاتِ الَّتي حَوَتْ قَصائِدَ مِن عُيونِ الشِّعرِ الجاهِليِّ.

2- كُتُبُ الاخْتِياراتِ الأدَبيَّةِ:

وهي تلك الكُتُبُ الَّتي اخْتارَ أصْحابُها عُيونًا مِنَ الشِّعرِ والأدَبِ، سواءٌ في الشِّعرِ الجاهِليِّ أو ما بعْدَه، وحَظِيتْ بإعْجابِ الرُّواةِ وعُمومِ النَّاسِ، وعَمَدَ أصْحابُ تلك الكُتُبِ إلى ذِكْرِها وشَرْحِها.

ومِن تلك الكُتُبِ:

(أ) المُفَضَّليَّاتُ :للمُفضَّلِ بنِ مُحمَّدِ بنِ يَعْلى بنِ سالِمٍ الضَّبِّيِّ، المُتَوفَّى سَنةَ (168هـ). وهو مِن أقْدَمِ الكُتُبِ الَّتي وصَلَتْنا في الشِّعرِ الجاهِليِّ. اخْتارَ فيها المُفضَّلُ بعضًا مِن نَوادِرِ الشِّعْرِ العَربيِّ، ثم شرَحه أبو بكرِ بنُ الأنباري المتوفَّى (328هـ)، كما شرَحه أيضًا الأستاذانِ أحمد شاكِر وعبد السلام هارُون في تحقيقِهما له.

(ب) الأصْمَعيَّاتُ :لأبي سَعيدٍ عبْدِ المَلِكِ بنِ قُرَيبٍ الأصْمَعيِّ، المُتَوفَّى سَنةَ (216هـ)، وقدِ اسْتكمَلَ في كِتابِه هذا جُهْدَ المُفضَّلِ الضَّبِّيِّ، وأتى بما أخَلَّ به ممَّا يَراه الأصْمَعيُّ مِن عُيونِ الشِّعرِ العَربيِّ وأجْوَدِه كذلك.

(ج) العِقْدُ الفَريدُ :لأبي عُمَرَ، شِهابِ الدِّينِ أحْمَدَ بنِ مُحمَّدِ بنِ عبْدِ رَبِّه، المُتوفَّى سَنةَ (328هـ)، ذكَرَ فيها أيَّامَ العَربِ ووَقائِعَهم، وما قيلَ في ذلِك مِن شِعْرٍ، وأصَّلَ لبعضِ القَصائِدِ الجاهِليَّةِ، فذَكَرَ مُناسَبتَها وما قيلَتْ فيه، واعْتَنى بذِكْرِ ما وقَعَ بيْنَ الأُدَباءِ مِنَ المُلَحِ والنَّوادِرِ.

3- كُتُبُ تَراجِمِ الأُدَباءِ والشُّعَراءِ:

وهي تلك الكُتُبُ الَّتي اعْتَنَتْ بطَبَقاتِ الشُّعَراءِ، وذِكْرِ أخْبارِهم وسِيَرِهم، وتَرْجمةِ حَياتِهم، معَ انْتِخابِ أفْضَلِ أشْعارِهم، ومِن ذلِك:

(أ) جَمْهَرةُ أشْعارِ العَربِ :لأبي زَيْدٍ، مُحمَّدِ بنِ أبي الخَطَّابِ القُرَشيِّ؛ حيثُ وقَفَ فيه على أخْبارِ بعضِ الشُّعَراءِ الكِبارِ؛ كزُهَيرٍ وامْرِئِ القَيْسِ، والأعْشى ولَبيدٍ، وعَمْرِو بنِ كُلْثومٍ وغيْرِهم، وتَناوَلَ شيئًا مِن أشْعارِهم ممَّا انْتَقاه بنفْسِه مِن أفْضَلِ ما قالوا، وتَناوَلَ تَبايُنَ الرُّواةِ والعُلَماءِ في أفْضَلِ الشُّعَراءِ، ثُمَّ ذَكَرَ المُعَلَّقاتِ، ثُمَّ اخْتارَ بعضًا مِن عُيونِ الشِّعرِ، سمَّى بعضَها المُجَمْهَراتِ، وبعضَها المُذَهَّباتِ، وبعضَها المَراثيَ، وبعضَها المَشوباتِ، وأُخرى المَلْحَماتِ.

(ب) طَبَقاتُ فُحولِ الشُّعَراءِ :لأبي عبْدِ اللهِ، مُحمَّدِ بنِ سَلَّامٍ الجُمَحيِّ، المُتَوفَّى سَنةَ (232هـ)، وقد قام بانْتِخابِ الشُّعَراءِ واخْتِبارِ شِعْرِهم، حتَّى جعَلَهم على طَبَقاتٍ ومَراتِبَ، فجعَلَ لشُعَراءِ الجاهِليَّةِ عَشْرَ طَبَقاتٍ، في كلِّ طَبَقةٍ أرْبَعةُ شُعَراءَ، وكذا جعَلَ لشُعَراءِ الإسلامِ؛ فجعَلَ في الطَّبَقةِ الأُولى لشُعَراءِ الجاهِليَّةِ امْرَأَ القَيْسِ، وزُهَيْرَ بنَ أبي سُلْمى، والأعْشى، والنَّابِغةَ الذُّبْيانيَّ، وفي الطَّبَقةِ الأُولى لشُعَراءِ الإسلامِ جَريرًا، والفَرَزْدَقَ، والأخْطَلَ، والرَّاعيَ النُّمَيريَّ. وذَكَرَ أفْضَلَ ما قالَه كلُّ شاعِرٍ مِنَ الشُّعَراءِ، كلٌّ في مَوضِعِه وطَبَقتِه.

(ج) الشِّعرُ والشُّعَراءُ :لأبي مُحمَّدٍ، عبْدِ اللهِ بنِ مُسلِمِ بنِ قُتَيْبةَ الدِّينَوَريِّ، المُتوفَّى سَنةَ (276هـ)، عُنِيَ

ابنُ قُتَيْبَةَ بِذِكْرِ تَراجِمِ الشُّعَراءِ، فتَرْجَمَ لِمِئَتَي شاعِرٍ وسِتَّةِ شُعَراءَ، يَذكُرُ أَسْماءَهم وأنْسابَهم وأَخْبارَهم ووَفاتَهم، ويَنتخِبُ مِن أَشْعارِهم.

4- كُتُبُ التَّاريخِ الأَدَبيِّ:

وهي تلك الكُتُبُ الَّتي اسْتَعرَضَتْ تاريخَ الأدَبِ مِن العَصْرِ الجاهِليِّ، وتَدرَّجَتْ به عَبْرَ العُصورِ، ووقَفَتْ على أبْرَزِ رِجالِه، وأبْرَزِ أعْمالِهم، ومِن أبْرَزِ هذه الكُتُبِ مَوْسوعةُ شَوقي ضَيف في تاريخِ الأدَبِ العَربيِّ، وكذا مَوْسوعةُ عمر فروخ في تاريخِ الأدَبِ العَربيِّ.

5- كُتُبُ البَلاغةِ والنَّقْدِ:

وهي مادَّةٌ خِصبةٌ تُوقِفُ الدَّارِسَ على أدَواتِ الأديبِ، وما يَنْبغي أن يُحصِّلَه ليَتَمكَّنَ مِنَ الإبْداعِ الأدَبيِّ، ومِن أبْرَزِ هذه الكُتُبِ:

(أ) البَيانُ والتَّبْيينُ: لأبي عُثْمانَ، عَمْرِو بنِ بَحْرِ بنِ مَحْبوبٍ الكِنانيِّ، المَشْهورِ بالجاحِظِ، المُتَوفَّى سَنةَ (255هـ). وهو مِن أشْهَرِ الكُتُبِ في اللُّغةِ والأدَبِ، وقد تَحدَّثَ فيه الجاحِظُ عن مَفْهومِ البَيانِ وأنْواعِه، وآفاتِ اللِّسانِ، والبَلاغةِ والفَصاحةِ، ودعَّمَ ذلك بعَرْضِ مُقْتَطَفاتٍ مِنَ الخُطَبِ والرَّسائِلِ والأشْعارِ والأحاديثِ، وتَكلَّمَ على أصْلِ اللُّغةِ وقيمةِ الشِّعرِ، وغيْرِ ذلِك.

(ب) الكامِلُ في اللُّغةِ والأدَبِ :لأبي العبَّاسِ، مُحمَّدِ بنِ يَزيدَ المُبَرِّدِ، المُتَوفَّى سَنةَ (285هـ)، وقد تَناوَلَ في الكِتابِ مُلَحًا مِن أخْبارِ الأُدَباءِ وأشْعارِهم، استَهلَّ الكِتابَ ببعضِ بَلاغاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا مِن كِتاباتِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدين وخُطَبِهم، وما فيها مِنَ البَلاغةِ والفَصاحةِ.

(ج) كِتابُ الصِّناعتَينِ: الكِتابة والشِّعْر: لأبي هِلالٍ، الحَسَنِ بنِ عبْدِ اللهِ بنِ سَهْلٍ، العَسْكَريِّ، المُتَوفَّى سَنةَ (395هـ). ألَّفَ العَسْكَريُّ الكِتابَ ليكونَ جامِعًا لمَعاييرِ الكِتابةِ وطُرُقِها وشُروطِها، شِعْرًا كانَتْ

أو نَثْرًا، ثُمَّ دَلَّلَ على كَلامِه وأكَّدَه بذِكْرِ مُقْتَطَفاتٍ بَليغةٍ مِن الأدَبِ العَربيِّ على مَرِّ عُصورِه.

(د) المَثَلُ السَّائِر في أدَبِ الكاتِبِ والشَّاعِرِ: لأبي الفَتْحِ، ضِياءِ الدِّينِ، نَصْرِ اللهِ بنِ مُحمَّدِ بنِ الأثيرِ، المُتَوفَّى سَنةَ (637هـ)، وقد وضَعَ كِتابَه ليكونَ مَرجِعًا في عُلومِ الكِتابةِ والبَلاغةِ والإنْشاءِ والشِّعرِ، ووضَعَ فيه ألوانَ المُحسِّناتِ، وصُوَرَ التَّشْبيهاتِ والمَجازِ، ونَحْوَ ذلك، وبَرْهَنَ على كلٍّ بما في جَعْبتِه مِن الآياتِ والأحاديثِ والشِّعرِ والنَّثْرِ.

6- المَعاجِمُ اللُّغويَّةُ:

وهي أساسٌ لمَعْرفةِ دَلالاتِ الألفاظِ، وفَهْمِ مَعاني الجُمَلِ والتَّراكيبِ، إلى جانِبِ ما حَوَتْه مِن أشْعارِ الشُّعَراءِ، وأقوالِ الأُدَباءِ بوَجْهٍ عامٍّ، ومِن أمْثِلتِها: لِسانُ العَربِ لابنِ مَنْظورٍ، ومَقاييسُ اللُّغةِ لابنِ فارِسٍ، والقاموسُ المُحيطُ للفَيْروزاباديِّ.

7- الكُتُبُ المُترَجمةُ:

وهي مُتَنوِّعةٌ وكَثيرةٌ؛ فبعضُها كُتُبٌ في الأدَبِ العَربيِّ، مِثلُ: تاريخِ الأدَبِ العَربيِّ لكارل بُروكْلمان، وإلى جانِبِ ذلك تُوجَدُ كُتُبٌ أدَبيَّةٌ كُتِبتْ في آدابِ اللُّغاتِ الأخرى، وهذه تُفيدُ في التَّعرُّفِ على التُّراثِ الأدَبيِّ للأُمَمِ الأخرى، وتَقِفُ القارِئَ على عَظَمةِ الأُمَّةِ العَربيَّةِ في أبْوابِ الأدَبِ.

الفَصْلُ السَّادِسُ: مَناهِجُ دِراسةِ النَّصِّ الأدَبيِّ

تَتَنوَّعُ الدِّراسةُ الأدَبيَّةُ بحسَبِ المَدخَلِ الَّذي يَلِجُ مِن خِلالِه الدَّارِسُ للنَّصِّ الأدَبيِّ؛ فهناك مَن يَدرُسُ النَّصَّ دِراسةً شَكْليَّةً جَماليَّةً، وهناك مَن يَتناوَلُ النَّصَّ انْطِلاقًا مِنَ المَنهَجِ النَّفْسيِّ، وهناك مَن يَتناوَلُه تَناوُلًا تاريخيًّا مُعْتمِدًا المَنهَجَ التَّاريخيَّ في دِراسةِ النَّصِّ الأدَبيِّ، وهناك مَن يَدرُسُه دِراسةً اجْتِماعيَّةً مُنطَلِقًا مِنَ المَنهَجِ الاجْتِماعيِّ في قِراءةِ وتَحْليلِ النَّصِّ... وهكذا.

وهذه المَناهِجُ يَعتَمِدُها المُختَصُّونَ في النَّقْدِ الأدَبيِّ في الكَشْفِ عن جَماليَّاتِ النَّصِّ، وتَوْسيعِ دَوائِرِ الإفادةِ مِنه، إلى جانِبِ الكَشْفِ عن أساليبِ الشُّعَراءِ والكُتَّابِ، ومِن ثَمَّ تَتَحدَّدُ لِكلِّ أديبٍ بَصْمتُه الإبْداعيَّةُ، ومَلامِحُه الَّتي تُميِّزُه مِن غيْرِه.

ومِن أبْرَزِ هذه المَناهِجِ بصورةٍ إجْماليَّةٍ: المَنهَجُ البِنْيويُّ، المَنهَجُ التَّفْكيكيُّ، المَنهَجُ النَّفْسيُّ، المَنهَجُ الشَّكْليُّ، المَنهَجُ الاجْتِماعيُّ، المَنهَجُ التَّاريخيُّ.

الفَصْلُ السَّابعُ: العَلاقةُ بيْنَ الأدَبِ والمُجْتمَعِ

لا شَكَّ أنَّ الأدَبَ يَتَّصِلُ اتِّصالًا مُباشِرًا بمُجْتمَعِه الَّذي يكونُ فيه، وبمَناحي الحَياةِ المُخْتلِفةِ؛ فالأديبُ ابنُ مُجْتمَعِه، يَتأَثَّرُ بالحَياةِ ويُؤثِّرُ فيها، يَنقُلُ عاداتِه وتَقاليدَه، ويَعتَزُّ بأمْجادِه، ويَفخَرُ بكُبَرائِه ورُموزِه، ويُناقِشُ مُشْكِلاتِه، ويُحاوِلُ أن يَجِدَ لها حَلًّا، فَضْلًا عن أنَّ لُغتَه وأُسلوبَه وصُوَرَه تَتأَثَّرُ كَثيرًا بالبيئةِ الَّتي يَعيشُ فيها، والمُجْتمَعِ الَّذي يَحيا بيْنَ ظَهْرانَيه، ولشِدَّةِ الصِّلةِ بيْنَ الأدَبِ والمُجْتمَعِ، فمِن خِلالِ دِراسةِ النِّتاجِ الأدَبيِّ للأديبِ يَسْتطيعُ الدَّارِسُ أن يَسْتنتِجَ الكَثيرَ مِن طَبيعةِ البيئةِ المُجْتمَعيَّةِ الَّتي نشَأَ فيها الأديبُ؛ إذ إنَّه -بقَصْدٍ أو بغيْرِ قَصْدٍ- يُصوِّرُ مَيزاتِ الأُمَّةِ النَّفْسيَّةَ والعَقْليَّةَ، وعُيوبَها ومِثاليَّتَها ومَحاسِنَها، وأحْوالَها السِّياسيَّةَ والاقْتِصاديَّةَ وغيْرَها. ومِن جِهةٍ أخرى فالأدَبُ رِسالةٌ مُوَجَّهةٌ مِن الأديبِ إلى مُجْتمَعِه يَنقُلُ مِن خِلالِها انْفِعالاتٍ وأفْكارًا مُعيَّنةً.

ولا أدَلَّ على هذا مِن أنَّ العُلَماءَ حينَ هَمُّوا بجَمْعِ اللُّغةِ العَربيَّةِ اقْتَصروا على نِهايةِ القَرْنِ الثَّاني الهِجريِّ بالنِّسبةِ للحَضَرِ، ورَخَّصوا في الأخْذِ عن الأعْرابِ والباديةِ إلى مُنْتصَفِ القَرْنِ الرَّابعِ؛ ذلك أنَّ طَبيعةَ الباديةِ وخُشونةَ العَيْشِ فيها لم تَجذِبِ العَجَمَ إليها، فيَخْتلِطوا بهم كما اخْتَلَطَ بهم الحَضَرُ، فتَتَغيَّرَ لُغتُهم ويَفْشوَ اللَّحْنُ فيهم كما فشا في الحَضَرِ، بلِ اسْتَمرُّوا على حالِهم مُحافِظينَ على اللُّغةِ وألْفاظِها في شِعْرِهم ونَثْرِهم.

ولشِدَّةِ لُصوقِ الأدَبِ بالمُجْتمَعِ، كانَتِ القَبيلةُ هي الَّتي تَرفَعُ الشَّاعِرَ أو تَضَعُه، فكم مِن شاعِرٍ انْتَشرَ أمْرُه وذاعَ صِيتُه بسَببِ مُجْتمَعِه؛ فشاعِرٌ مِثلُ عَمْرِو بنِ كُلْثومٍ التَّغْلِبيِّ دخَلَ التَّاريخَ بقَصيدةٍ واحِدةٍ، تَناقَلَها مُجْتمَعُه جيلًا بعْدَ جيلٍ، وهي مُعَلَّقتُه المَشْهورةُ الَّتي مَطلَعُها:

ألَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحينـــا   ولا تُبْقي خُمورَ الأَنْدَرينـــا

هذه القَصيدةُ الَّتي ظَلَّتْ قَبيلةُ تَغْلِبَ تُنشِدُها لَيلَ نَهارَ، حتَّى قالَ فيهم أحَدُ الشُّعَراءِ:

ألْهَى بَني تَغلِبٍ عنْ كلِّ مَكرُمةٍ   قَصيدةٌ قالَها عَمْرُو بنُ كُلْثومِ

يَرْوونَها أبَدًا مُذْ كانَ أوَّلُهـــــم   يا لَلرِّجالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَسْؤومِ[4]

وإنَّ ما أعْطى تلك القَصيدةَ كلَّ هذا الاهْتِمامِ أنَّها جاءَتْ في الفَخْرِ ببَني تَغْلِبَ، وذلك في أثْناءِ الحَديثِ عن حَرْبِ "البَسوسِ"، الَّتي كانَتْ بيْنَ تَغْلِبَ وبَكْرٍ، فأعلى فيها الشَّاعِرُ مِن قَومِه التَّغْلِبيِّينَ، وحَطَّ مِن شأنِ عَدُوِّهم، وفَنَّدَ مَزاعِمَهم، وسَخِرَ مِن المَلِكِ عَمْرِو بنِ هِنْدٍ الَّذي لَقيَ مَصرَعَه بعْدَ ذلِك في إحدى المَعارِكِ.

4 المسؤوم: ما يُمَلُّ ويُضجَرُ مِنهُ.

الفَصْلُ الثَّامِنُ: أَسْبابُ الإِبْداعِ الأَدَبِيِّ، ومُعَوِّقاتُه

الأَدَبُ العَربيُّ شأنُه شأنُ أيِّ نَشاطٍ إنْسانيٍّ يَخضَعُ لمُؤَثِّراتٍ مُخْتلِفةٍ تُؤَثِّرُ فيه إيجابًا وسَلْبًا؛ فهناك العَديدُ مِنَ المُؤَثِّراتِ الَّتي تَفرِضُ نفْسَها على الحَياةِ الأدَبيَّةِ، ويُؤَثِّرُ وُجودُها إيجابًا وسَلْبًا في ارْتِقاءِ العَمَلِ الفَنِّيِّ وانْحِطاطِه.

ومِن أَبْرَزِ هذه المُؤَثِّراتِ بصورةٍ إجْماليَّةٍ ما يأتي:

1 – الطَّبْعُ والمَوْهِبةُ :إنَّ أوَّلَ آلاتِ العَمَلِ الأدَبيِّ وأهمَّ أدَواتِه هو وُجودُ المَلَكةِ القادِرةِ على النَّسْجِ والتَّأليفِ، فإذا لم يكنِ الَّذي يُنشِئُ العَمَلَ الأدَبيَّ مَوْهوبًا مَفْطورًا على الإنْشاءِ والتَّدْوينِ، لم يُفِدْه شيءٌ، بل كانَ غايةُ ما يَصِلُ إليه أن يَسبِكَ نَصًّا فِكريًّا يَفتقِرُ إلى مَلمَسِ الأديبِ وأُسلوبِه؛ ولِهذا قال ضِياءُ الدِّينِ بنُ الأثيرِ: (اعْلَمْ أنَّ صِناعةَ تَأليفِ الكَلامِ مِنَ المَنْظومِ والمَنْثورِ تَفتقِرُ إلى آلاتٍ كَثيرةٍ، وقد قيلَ: يَنْبغي للكاتِبِ أن يَتعلَّقَ بكلِّ عِلمٍ، حتَّى قيلَ: كلُّ ذي عِلمٍ يَسوغُ له أن يَنسُبَ نفْسَه إليه فيقولَ: فُلانٌ النَّحْويُّ، وفُلانٌ الفَقيهُ، وفُلانٌ المُتكلِّمُ، ولا يَسوغُ له أن يَنسُبَ نفْسَه إلى الكِتابةِ فيقولَ: فُلانٌ الكاتِبُ؛ وذلك لِما يَفتقِرُ إليه مِنَ الخَوْضِ في كلِّ فَنٍّ.

ومِلاكُ هذا كلِّه الطَّبْعُ؛ فإنَّه إذا لم يكنْ ثَمَّ طَبْعٌ فإنَّه لا تُغْني تلك الآلاتُ شيئًا، ومَثَلُ ذلك كمَثَلِ النَّارِ الكامِنةِ في الزِّنادِ، والحَديدةِ الَّتي يُقدَحُ بها؛ ألَا تَرى أنَّه إذا لم يكنْ في الزِّنادِ نارٌ لا تُفيدُ تلك الحَديدةُ شيئًا؟!).

2– الأَحْوالُ الاجْتِماعيَّةُ:

سبَقَ أن ذَكَرْنا أنَّ الأديبَ يَتأثَّرُ ببيئتِه ومُجْتمَعِه، وأنَّ الشِّعرَ إنَّما هو مَظهَرٌ اجْتِماعيٌّ قبْلَ أن يكونَ لَونًا أدَبيًّا؛ فإنَّ الأديبَ إنَّما يَتحدَّثُ ليُبيِّنَ مَشاكِلَ قومِه ويُعالِجَها، بل إنَّ اللُّغةَ يَتِمُّ تَناوُلُها مِنَ المَنْظورِ

الاجْتِماعيِّ قبْلَ أيِّ مَنْظورٍ آخَرَ.

لِذا فمِنَ البَدَهيِّ أن تَتَبايَنَ مُسْتَوياتُ أداءِ الأديبِ باخْتِلافِ الحالةِ الاجْتِماعيَّةِ الَّتي يَمُرُّ بها؛ فمَثَلًا تَشيعُ في كُتُبِ الأدَبِ مَفاخِرُ الشُّعَراءِ والخُطَباءِ بانْتِصارِ قَوْمِهم على أعْدائِهم، في حينِ يَنْعدِمُ أو يَندُرُ أن تَرى شاعِرًا أو ناثِرًا يكتُبُ شيئًا بعْدَ انْهِزامِ قَوْمِه.

كذلك فإنَّ المُجْتَمَعَ إذا كان مُشجِّعًا للشُّعراءِ والأُدَباءِ والعُلَماءِ، يَدعَمُهم ويُؤازِرُهم ويَرْوي عنهم ويَنقُلُ مآثِرَهم، كان ذلك أدْعى للشَّاعِرِ على اسْتِكمالِ طَريقِه، في حينِ أنَّ مُجْتمَعًا إذا أهْمَلَ ذلك قَلَّ أن يُؤثِّرَ ذلك في أُدَبائِه بصورةٍ إيجابيَّةٍ، أو على الأقَلِّ ألَّا يتأثَّرَ أدَبُه به.

ولا يَعْني هذا أنَّ الأديبَ إنَّما يَنشَطُ قَلَمُه ويَتَّقِدُ ذِهْنُه إذا خَلا المُجتمَعُ مِنَ المَشاكِلِ والأزَماتِ؛ فإنَّ الشَّاعِرَ لِسانُ مُجْتمَعِه ومُصلِحُهم، وكم مِن مَصائِبَ أَجَّجتْ مَوهِبةَ الشُّعراءِ وألْهَبتْها، وما أكْثَرَ النِّزاعاتِ الَّتي انْتَهتْ بنَظْمِ شاعِرٍ أو تَأليفِ أديبٍ، وأخرى اتَّقدَتْ بكَلِمةٍ جَرَتْ معَ الرِّيحِ!

والمُرادُ أنَّ بعضَ الأزَماتِ والمَواقِفِ الاجْتِماعيَّةِ تَمُرُّ على الأديبِ فتُخرِسُه، فلا يَسْتطيعُ معَها أن يَنطِقَ ببِنْتِ شَفَةٍ، وأخرى تَجعَلُ قَريحتَه بارِدةً فاتِرةً، لا يَنهَضُ لها قَلَمٌ ولا تَطرَبُ لها أُذُنٌ، والإشْكاليَّةُ عِنْدَما يَعُمُّ مُناخٌ عامٌّ سَلْبيٌّ تِجاهَ الإبْداعِ والمُبْدِعينَ، وازْدِراءٌ لأصْحابِ العَطاءِ الحَقيقيِّ على حِسابِ الشَّهَواتِ المادِّيَّةِ الآنيَّةِ، فهنا يَكمُنُ الخَلَلُ الحَقيقيُّ الَّذي تَضْمحِلُّ فيه حَرَكةُ الإبْداعِ في سائِرِ العُلومِ والفُنونِ.

3- الأحْوالُ السِّياسيَّةُ:

إذا كانتِ الحَياةُ بأسْرِها تَتأثَّرُ بالأحْوالِ السِّياسيَّةِ للبِلادِ، فمِنَ الطَّبيعيِّ أن يَتأثَّرَ الأديبُ بذلك، خاصَّةً أنَّه إنْسانٌ مِن بَني الوَطَنِ، يَتأثَّرُ بما يَتأثَّرُ به مُجْتمَعُه، وفَوقَ هذا فهو مِرآةُ شَعْبِه ولِسانُ مُجْتمَعِه.

فلا عَجَبَ إذَنْ أن تَتأَثَّرَ الحَياةُ الأدَبيَّةُ بتَغايُرِ الأحْوالِ السِّياسيَّةِ؛ ولِهذا تَرى أوْجَ ازْدِهارِ الأدَبِ في عُصورِ الاسْتِقرارِ السِّياسيِّ، في حينِ يُلجِئُ القَهْرُ والاسْتِبدادُ الأُدَباءَ إلى السُّكوتِ، فَضْلًا عنِ التَّملُّقِ[5] والمُداهَنةِ[6] بمَدْحِ الحاكِمِ الظَّالِمِ ووَصْفِه بما ليس فيه.

4- الأحْوالُ الاقْتِصاديَّةُ:

لا رَيْبَ أنَّ الحَياةَ الاقْتِصاديَّةَ تُؤثِّرُ في المُجْتمَعِ بأسْرِه؛ فإنَّ المُجْتمَعَ إذا هُدِّدَ في أمْنِه الماليِّ كان أبْعَدَ عن نَسْجِ الشِّعرِ وتَأليفِ النَّثْرِ.

ولِهذا اعْتَنى الشُّعَراءُ بذِكْرِ الحَرْثِ والزَّرْعِ، ووَصْفِ الأنْهارِ والأمْطارِ وهُبوبِ الرِّيحِ ونَحْوِ ذلك؛ تَقْديرًا مِنهم لأهمِّيَّةِ الاسْتِقرارِ الاقْتِصاديِّ.

ولِهذا كان يَتَغنَّى الشُّعَراءُ بالأماجِدِ في أقْوامِهم، الَّذين يُفرِّقونَ المالَ في ضُعَفاءِ النَّاسِ وفُقَرائِهم، وما امْتَدحوا بَخيلًا مُمسِكًا يَضَنُّ بما آتاه اللهُ على أهْلِه وذَويه.

وعلى النَّقيضِ ظهَرَتْ جَماعةُ شُعَراءِ الصَّعاليكِ، الَّذين يَتَلصَّصونَ ويَنهَبونَ الأمْوالَ مِن الأغْنياءِ؛ لا لِيَنْتفِعوا بها، وإنَّما ليُوزِّعوها على الفُقَراءِ، فكانَ مِن أشْهَرِ الصَّعاليكِ تَأبَّطَ شَرًّا، وعُرْوةُ بنُ الوَرْدِ، والشَّنْفَرى، وغَيْرُهم، الَّذين أكْثَروا في شِعرِهم مِن ذِكْرِ غاراتِهم الَّتي شَنُّوها على الأثْرياءِ، وكيف أفْلَتوا مِن مَوْتٍ مُحقَّقٍ، وكيف اسْتَبْسلَ بعضُهم في الدِّفاعِ عن حُقوقِ الفُقَراءِ.

---

5 التملق: التَّوَدُّدُ والتَّلَطُّفُ مع تَكَلُّفٍ.

6 المداهنة: المُلَايَنَة والمُصَانَعَة.

الفصل التاسع: بين الشعر والنثر

النَّثْرُ في اللُّغةِ: لَفْظةُ النَّثْرِ مَأخوذةٌ مِن المادَّةِ (نَثَر) الَّتي مِن دَلالاتِها: رَمْيُ الشَّيءِ مُتَفرِّقًا، ومِنه نَثْرُ الحَبِّ إذا بُذِرَ، ونَثْرُ اللُّؤْلُؤِ والجَوْزِ واللَّوْزِ والسُّكَّرِ في الوَلائِمِ والحَفَلاتِ، والنُّثارُ -بالضَّمِّ- ما تَناثَرَ مِن الشَّيءِ.

رُبَّما أُخِذَ لَفْظُ "النَّثْرِ" عَلَمًا على ذلك النَّوْعِ مِن الكَلامِ الأدَبيِّ مِن المَعنى اللُّغويِّ للنَّثْرِ، المُتعلِّقِ بنَثْرِ اللُّؤْلُؤِ؛ فكأنَّ الخَطيبَ إذا خطَبَ في النَّاسِ خُطبةً بَليغةً أدَبيَّةً، فكأنَّه يَنثُرُ عليهم مِن اللَّآلِئِ والهَدايا، كما يَنثُرُ الآدِبُ -صاحِبُ المَأدُبةِ- على الحاضِرينَ. وكذلك سائِرُ النُّثَّارِ كأصْحابِ القِصَصِ والرَّسائِلِ والمَقاماتِ والرِّواياتِ وغيْرِها.

وقد تَقارَبَتْ تَعْريفاتُ الاصْطِلاحيِّينَ لمَفْهومِ "النَّثْرِ"؛ فقيلَ: هو الكَلامُ الخالي مِن الأوْزانِ والقَوافي، ويَقصِدُ به صاحِبُه التَّأثيرَ في نُفوسِ المُستْمِعينَ، والَّذي يَحفِلُ مِن أجْلِ ذلك بالصِّياغةِ وجَمالِ الأداءِ.

وقيلَ: هو الكَلامُ المَنْثورُ لا المَنْظومُ، الَّذي يَعْتمِدُ على الفِكْرِ والمَنطِقِ لا الخَيالِ والعاطِفةِ، يَتحكَّمُ فيه العَقْلُ والفِكْرُ أكْثَرَ مِن المَشاعِرِ والخَوالِجِ والأحاسيسِ، ومِنه: القِصَّةُ والرِّوايةُ، والمَسْرحيَّةُ والخُطبةُ، والرِّسالةُ والخاطِرةُ والمَقالُ.

وقيل: هو الكَلامُ الَّذي يُصوِّرُ العَقْلَ والشُّعورَ، ولا يَتَقيَّدُ بوَزْنٍ ولا قافيةٍ.

الفَصْلُ العاشِرُ: الفَرْقُ بيْنَ الشِّعرِ والنَّثْرِ

يَتَقاسَمُ الشِّعرُ والنَّثْرُ الأدَبَ العَربيَّ، إلَّا أنَّهما يَخْتلفانِ فيما بيْنَهما على جَميعِ المُسْتوَياتِ، سَواءٌ مِن جِهةِ الأديبِ ومَوهِبتِه، أو العَمَلِ الأدَبيِّ ذاتِه، أو في التَّأثيرِ في جُمْهورِ المُخاطَبينَ. ولا يَعْني هذا تَفْضيلَ أحَدِهما –الشِّعْر أو النَّثْر– على الآخَرِ؛ فلِكلٍّ مِنْهما رِسالتُه ومَكانتُه ودَورُه في إثْراءِ الحَياةِ الأدَبيَّةِ والثَّقافيَّةِ بوَجْهٍ عامٍّ، ويُمكِنُ إجْمالُ أبْرَزِ الفُروقِ فيما بيْنَهما في النِّقاطِ التَّاليةِ:

1– **مِن النَّاحيةِ التَّاريخيَّةِ** :فإنَّ الشِّعرَ أسْبَقُ مِن النَّثْرِ –على الرَّاجِحِ كما سيأتي بَيانُه–، وقدِ اسْتَخدمَتْه الأُمَمُ –لا سيَّما الأُمَّةِ العَربيَّةِ– في التَّعْبيرِ الأدَبيِّ قبْلَ النَّثْرِ .

2– **ومِن ناحيةِ الصُّورةِ والأُسلوبِ** :فإنَّ الشِّعرَ يَخْتلِفُ عنِ النَّثْرِ اخْتِلافًا واضِحًا؛ فالشِّعرُ يَتَقيَّدُ بالأوْزانِ والقَوافي وقَوانينِهما، فيأتي على نَمَطٍ مُعيَّنٍ لا يُخالِفُه، بخِلافِ النَّثْرِ الَّذي تَحرَّرَ مِن رِبْقةِ الأوْزانِ والقَوافي، وإنِ اعْتَمَدَ على خَصائِصَ أُسلوبيَّةٍ أخرى تكسِبُه الثَّوبَ الأدَبيَّ الَّذي يُقنِعُ العَقْلَ ويَستميلُ النَّفْسَ.

كما أنَّ طَبيعةَ الشِّعرِ تَعتمِدُ على الإيجازِ، كما تَتَحكَّمُ قَواعِدُه وأوْزانُه في انْتِقاءِ الكَلِماتِ، واخْتِيارِ تلك الكَلِمةِ على حِسابِ أُخْتِها، وإن كانَتْ أدَلَّ على المُرادِ مِنها.

وكذلك فإنَّ الشِّعْرَ تَغلِبُ عليه لُغةُ العاطِفةِ؛ ولِذا يَكثُرُ فيه الخَيالُ والأجْراسُ الموسيقيَّةُ الآخِذةُ، بخِلافِ النَّثْرِ الَّذي يَعْتمِدُ خِطابَ العَقْلِ –غالِبًا– ومِن ثَمَّ نَجِدُه يَميلُ إلى اعْتِمادِ لُغةٍ واضِحةٍ قَريبةٍ، يَقِلُّ فيها الخَيالُ، ويَكثُرُ فيها التَّقْريرُ .

3– **ومِن ناحيةِ الحِفْظِ والنَّقْلِ** :فإنَّ الشِّعْرَ أيْسَرُ في الحِفْظِ وأَسْهَلُ في النَّقْلِ؛ ومِن ثَمَّ كانَتْ أقوالُ الشُّعَراءِ ودَواوينُهم أقْدَمَ وُجودًا، وأكْثَرَ شُيوعًا وانْتِشارًا.

4- ومِن ناحيةِ المُرونةِ والتَّطوُّرِ :فإنَّ النَّثْرَ أقْدَرُ على التَّطوُّرِ، وأطْوَعُ مِن الشِّعْرِ؛ إذِ النَّثْرُ يَعْتمِدُ العَقْلَ أَكْثَرَ مِن العاطِفةِ، ويَتَحلَّلُ مِن الأوْزانِ والقَوافي، ومِن ثَمَّ كان أقْدَرَ مِن الشِّعْرِ على التَّطوُّرِ وأسْرَعَ .

5- ومِن النَّاحيةِ الموسيقيَّةِ فإنَّ الشِّعْرَ لُغةُ الغِناءِ والموسيقا، بخِلافِ النَّثْرِ؛ فإنَّه لا يَصلُحُ لِذلك؛ ولِهذا كانَتِ المَوْضوعاتُ الغِنائيَّةُ؛ كالغَزَلِ والنَّسيبِ والحَنينِ ونَحْوِها، أَكْثَرَ تَعلُّقًا بالشِّعْرِ مِن النَّثْرِ.

الفَصْلُ الحاديَ عشَرَ: أنْواعُ النَّثْرِ

يَنْقسِمُ النَّثْرُ العَربيُّ إلى أنْواعٍ كَثيرةٍ، مِنها القَديمُ ومِنها الحَديثُ، وقد تَسبَّبَ في هذا الانْقِسامِ اخْتِلافُ المَواقِفِ والأغْراضِ، وطَبيعةُ الشَّخْصِ المُنشِئِ والمُتلقِّي، وفيما يأتي أبْرَزُ أنْواعِ النَّثْرِ في الأدَبِ العَربيِّ:

1- **الخَطابةُ:** وهي فَنُّ مُشافَهةِ الجَماهيرِ بهَدَفِ إقْناعِهم وحَمْلِهم على ما يُرادُ مِنهم بكَلامٍ بَليغٍ، وقيلَ: هي حَديثٌ يُقصَدُ به إثارةُ المَشاعرِ وإلهابُ العَواطِفِ في الحالِ.

والخَطابةُ مِن أقْدَمِ فُنونِ النَّثْرِ، كانَتْ قَرينةَ الشِّعْرِ في التَّأثيرِ والإقْناعِ واسْتِمالةِ العُقولِ والقُلوبِ، إلَّا أنَّها كانَتْ دونَه في الذُّيوعِ والانْتِشارِ، وقد عرَفَها العَربُ في الجاهِليَّةِ وعَظُمَ شَأنُها بمَجيءِ الإسلامِ، وما زالتْ لها رِيادتُها ومَكانتُها.

2- **الرَّسائِلُ:** وهي لَونٌ مِن النَّثْرِ، تُشبِهُ الخَطابةَ في الأُسلوبِ والمَقصَدِ، إلَّا أنَّها تَخْتلِفُ عنها في كَوْنِها كِتابةً يُرسِلُها المُنشِئُ إلى غائِبٍ عنه، في حينِ أنَّ الخَطابةَ مُشافَهةٌ يُلقيها الرَّجُلُ على جُمْهورٍ مِن الحاضِرينَ.

وفَنُّ الرَّسائِلِ الأدَبيَّةِ قَديمٌ عِنْدَ العَربِ، إلَّا أنَّه لم يَنَلْ ما نالَه الشِّعْرُ ولا الخَطابةُ مِن المَكانةِ، ويَرجِعُ ذلك إلى صُعوبةِ الكِتابةِ وعُسْرِ أدَواتِها؛ حيثُ كانَتِ الكِتابةُ قَديمًا على الرِّقاعِ والجَريدِ والأحْجارِ ونَحْوِها، ولم تكنِ الكِتابةُ مُنْتشِرةً بَيْنَهم؛ فقدْ دخَلَ الإسلامُ وفي المَدينةِ ثُلَّةٌ يَسيرةٌ تَعرِفُ القِراءةَ والكِتابةَ، فلمَّا دخَلَ الإسلامُ وحرَّضَ على تَعْليمِ الكِتابةِ، وشجَّعَ القُرآنُ على تَعْليمِ القِراءةِ والكِتابةِ، ازْدَهرتِ الكِتابةُ وتَطوَّرتْ أنْواعُها الأدَبيَّةُ شيئًا فشيئًا.

3- الحِكَمُ والأمْثالُ: مِن أشْهَرِ ألْوانِ النَّثْرِ ذُيوعًا وانْتِشارًا مُنْذُ العَصْرِ الجاهِليِّ وحتَّى الآنَ، وكِلا النَّوْعَينِ يَتميَّزُ بالبَلاغةِ والإيجازِ، ويُوجَدُ في الشِّعْرِ والنَّثْرِ، إلَّا أنَّهما أَكْثَرُ انْتِشارًا في النَّثْرِ.

والحِكمةُ: قولٌ بَليغٌ يَتَضمَّنُ حُكْمًا صَحيحًا مُسَلَّمًا به، كقولِ القائِلِ: رُبَّ ضارَّةٍ نافِعةٌ، وقولِهم: "مَنْ جَدَّ وَجَدَ".

والأمْثالُ: كَلِماتٌ مُخْتصَرةٌ تُورَدُ للدَّلالةِ على أُمورٍ كُلِّيَّةٍ مَبْسوطةٍ، وليس في كَلامِهم أوْجَزُ مِنها؛ ذلك أنَّ أصْلَ تلك الأمْثالِ أقْوالٌ قِيلَتْ في مَواقِفَ مُعيَّنةٍ، فاشْتَهرتْ حتَّى جَرَتْ مَثَلًا يُقالُ في مِثْلِ المَوقِفِ الَّذي جَرى فيه المَوقِفُ الأوَّلُ، كقولِهم: "رجَعَ بخُفَّيْ حُنَينٍ".

4- الوصايا : جَمْعُ وَصيَّةٍ، وهي (قولٌ بَليغٌ مُؤثِّرٌ يَتضمَّنُ حَثًّا على سُلوكٍ طَيِّبٍ نافِعٍ، حُبًّا فيمَن تُوَجَّهُ إليه الوَصيَّةُ، ورَغبةً في رِفعةِ شأنِه وجَلْبِ الخَيرِ له). وعادةً ما تكونُ الوَصيَّةُ مِن أوْلياءِ الأُمورِ أو ذَوي الفَضْلِ عنْدَ حُلولِ الشَّدائِدِ، أو حُدوثِ الأزَماتِ، أوِ الإحْساسِ بدُنُوِّ الفِراقِ، ونَحْوِ ذلك، وهي وَليدةُ خِبْرةٍ طَويلةٍ في الحَياةِ، وعَقْلٍ واعٍ، وتَفْكيرٍ سَليمٍ، ويَدفَعُ إليها المَودَّةُ الصَّادقةُ والحُبُّ العَميقُ.

على أنَّ بعضَ الكُتَّابِ يُدرِجُ الوَصايا ضِمْنَ الرَّسائِلِ، ويَجعَلُها لَونًا مِن ألْوانِها.

5- المَقاماتُ : جَمْعُ مَقامةٍ، وهي فَنٌّ مِن فُنونِ النَّثْرِ، عِبارةٌ عن كِتابةٍ حَسَنةِ التَّأليفِ والتَّرْتيبِ، ومَدارُها على رِوايةٍ لَطيفةٍ مُخْتلِفةٍ تُسنَدُ إلى بعضِ الرُّواةِ، والمَقْصودُ مِنها غالِبًا جَمْعُ دُرَرِ الألفاظِ، وغُرَرِ البَيانِ، ونَوادِرِ الكَلامِ، فَضْلًا عن ذِكْرِ الفَرائِدِ البَديعةِ والرَّقائِقِ الأدَبيَّةِ؛ كالرَّسائِلِ المُبتكَرةِ، والخُطَبِ المُحبَّرةِ، والمَواعِظِ المُبْكيةِ، والأضاحيكِ المُلْهيةِ.

وقدِ ابْتكرَ هذا الفَنَّ بَديعُ الزَّمانِ الهَمَذانيُّ، فصاغَ مَقاماتٍ كَثيرةً تَعْتمِدُ على القِصَصِ المُضحِكةِ، وتَحمِلُ نَقْدًا لاذِعًا للمُجْتمَعِ وأحْوالِه، وعلى نَهْجِه سارَ الحَريريُّ.

6- **المَقالةُ** :هي قِطْعةٌ نَثْرِيَّةٌ يَعرِضُ فيها الكاتِبُ فِكرةً مُحدَّدةً بأُسلوبٍ أدَبيٍّ، وتُعَدُّ المَقالةُ نَوْعًا مِن أنْواعِ النَّثْرِ الأدَبيِّ، لها سِماتُها وخَصائِصُها المُمَيِّزةُ لها، وقد ذاعَ هذا اللَّونُ الأدَبيُّ وانْتَشرَ بصورةٍ واسِعةٍ بظُهورِ الصُّحُفِ والمَجلَّاتِ، ولا يَعْني هذا عَدَمَ وُجودِه قبْلَ ذلك، فقد كانَتِ المَقالاتُ تابِعةً للرَّسائِلِ؛ حيثُ اعْتادَ الأُدَباءُ على تَقْسيمِ الرَّسائِلِ إلى شَخْصيَّةٍ ورَسْميَّةٍ، والشَّخْصيَّةُ مِنها رَسائِلُ الإِخْوانِ والأصْدِقاءِ والأحْبابِ، والرَّسائِلُ العِلميَّةُ الَّتي تَتَضمَّنُ فِكرةً عِلميَّةً أو نَقْديَّةً. وفي رَسائِلِ الجاحِظِ بَيانٌ وغُنْيةٌ.

7- **القِصَّةُ** :وهي حِكايةٌ مَبْنيَّةٌ على أشْخاصٍ وأحْداثٍ، يُصوِّرُها الأديبُ وَفْقَ أُسلوبِه الأدَبيِّ، وتَتَنوَّعُ بيْنَ القِصَّةِ القَصيرةِ والطَّويلةِ -الرِّواية-. وقدْ عرَفَ العَربُ قَديمًا فَنَّ القِصَّةِ، وظهَرَتْ بَوادِرُه في الأمْثالِ الَّتي تَذكُرُ قِصَّةَ رَجُلٍ يُضرَبُ به المَثَلُ في شيءٍ ما، ويَذْكرونَ لِذلك المَثَلِ أصْلًا انْتَشرَ بَيْنَهم، كقولِهم: "أخْلَفُ مِن عُرْقوبٍ"، وأصْلُ ذلك أنَّ رَجُلًا اسْمُه عُرْقوبٌ أتاه أخٌ له يَسألُه، فقالَ له: إذا أَطلَعَتْ هذه النَّخْلةُ فكُلْ طَلْعَها، فلمَّا أَطلَعَتْ جاءَه الرَّجُلُ، فقالَ له عُرْقوبٌ: دَعْها حتَّى تَصيرَ بَلَحًا، فجاءَه لَمَّا صارَ الطَّلْعُ بَلَحًا، فقالَ له: دَعْها حتَّى تَصيرَ زَهْوًا، فلما أَزهَتْ قالَ له: دَعْها حتَّى تَصيرَ تَمْرًا، فلمَّا أَتمَرَتْ قَطَعَها عُرْقوبٌ، ولم يَظفَرِ الرَّجُلُ مِنه بشيءٍ، فضُرِبَ به المَثَلُ في خُلْفِ الوَعْدِ!

كما عرَفَ الجاهِليُّونَ كذلك التَّصْويرَ القَصَصيَّ في الأعْمالِ الشِّعْريَّةِ، فحَكَوْا فيه مَلاحِمَهم وغَزَواتِهم، كما أشاعوا فيه قِصَصَ المُغامَراتِ العاطِفيَّةِ الَّتي تُعبِّرُ عن جُرأةِ الشَّاعِرِ وشَجاعتِه، وفي شِعْرِ امْرِئِ القَيْسِ مِنها الشَّيءُ الكَثيرُ.

ولمَّا جاءَ الإسلامُ نالَتِ القِصَّةُ حُظْوةً كُبْرى؛ فالقُرآنُ والسُّنَّةُ حَفَلا بالكَثيرِ مِن قِصَصِ السَّابِقينَ.

وفي العَصْرِ العبَّاسيِّ ظهَرَتِ القِصَصُ بصورتِها المَعْروفةِ، بدايةً مِن تَرْجمةِ الكُتُبِ الأجْنَبيَّةِ، إلى أن

صارَ لِلعَربِ تُراثُهم القَصَصيُّ المَعْروفُ، فَضْلًا عنِ ابْتِداعِ فَنِّ المَقاماتِ، وصِلتِه اللَّصيقةِ بالقِصَصِ والرِّواياتِ.

وفي العَصْرِ الحَديثِ انْتَشرَ فَنُّ القِصَصِ والرِّواياتِ، وتَعدَّدَتْ مَذاهِبُه ومَدارِسُه، وامْتَلأتِ المَكْتباتُ بآثارِ أصْحابِه مِنه.

الفَصْلُ الثَّاني عشَرَ: الفَرْقُ بيْنَ النَّثْرِ والكَلامِ العاديِّ

إذا كانَ الشِّعْرُ يَختْلِفُ عنِ النَّثْرِ في طَريقةِ نَظْمِه، واعْتِمادِه على التَّقْفيةِ، وخُضوعِه لقَواعِدِ الشِّعْرِ مِن الوَزْنِ والرَّوِيِّ والموسيقا ونَحْوِ ذلك، فإنَّ النَّثْرَ هنا لا يَعْني الكَلامَ الَّذي خَلا مِن الوَزْنِ والقافيةِ، لِيَشمَلَ كلَّ كَلامٍ خَلا مِن الوَزْنِ، بل إنَّ النَّثْرَ هنا إنَّما يُرادُ به ذلك النَّصُّ الأدَبيُّ، الَّذي تَوافرَتْ فيه شُروطُ الأدَبِ، مِن مُراعاةِ مُقْتضى الحالِ، وفَصاحةِ الكَلامِ، وإنْزالِ النَّاسِ مَنازِلَها، ومُراعاةِ المَوقِفِ مِن حيثُ الإيجازُ والإطْنابُ، فَضْلًا عن إيصالِ المَعْنى المُرادِ.

فيَخرُجُ عن هذا الكلامُ العاميُّ الَّذي يَتكلَّمُ به النَّاسُ، كما تَخرُجُ به الرَّسائِلُ الرَّسميَّةُ، والمُعامَلاتُ الحُكوميَّةُ الَّتي لا تُراعى فيها قَواعِدُ اللُّغةِ والنَّحْوِ، فَضْلًا عن فَصاحةِ الكَلِمةِ وبَلاغةِ الكَلامِ.

الفصلُ الثالث عشر: رِوايةُ الشِّعْرِ الجاهِليِّ وتَدْوينُه

ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ الكِتابةَ كانَتْ مَوْجودةً في العَصْرِ الجاهِليِّ، وكانَ عَدَدٌ مِن الجاهِليِّينَ ليس بالكَثيرِ على عِلمٍ ودِرايةٍ بالكِتابةِ، وقدْ رُوِيَ أنَّه كانَ مِن الجاهِليِّينَ مَنْ يَعرِفُ أَكْثَرَ مِن لُغةٍ، ويُتقِنُها كإتْقانِه للُغتِه الأُمِّ، مِثلُ: لَقيطِ بنِ يَعْمُرَ الإياديِّ، وعَديِّ بنِ زيدٍ العِباديِّ الَّذي كانَ يَكتُبُ للنُّعْمانِ الأكْبَرِ، وقد ذَكَرَ الشُّعَراءُ الكِتابةَ وأدَواتِها في شِعْرِهم، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم عرَفوها واسْتَخدَموها، ومِن أمْثِلةِ ذلك:

قولُ حاتِمٍ الطَّائيِّ:

أتَعرِفُ أطْلالًا ونُؤْيًا مُهدَّمـــا كخَطِّكَ في رِقٍّ كِتابًا مُنَمْنَمـــا[7]

وقولُ زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمى:

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتابٍ فيُدَّخَرْ لِيومِ الحِسابِ أو يُعَجَّلْ فيُنْقَـمِ

بَلْ إنَّ بعضَ الشُّعَراءِ كانَ يَكتُبُ لقَوْمِه ويُرسِلُ لهم، مِثل لَقيطِ بنِ يَعْمُرَ الإياديِّ، وكانَ قد عَلِمَ بخَبَرِ غَزْوِ كِسْرى لقَوْمِه، فكتَبَ إليهم يُحذِّرُهم، وكانَ آخِرُ ما كتَبَ قولَه:

هذا كِتابِي إليكمْ والنَّذيرُ لكمْ لِمَنْ رَأى رَأيَهُ مِنكمْ وَمَنْ سَمِعا

ومعَ أنَّ الكِتابةَ كانَتْ مَعْروفةً لديهم فإنَّهم لم يَتَّخِذوها وَسيلةً لحِفْظِ الشِّعْرِ، وذلك لأسْبابٍ كَثيرةٍ؛ مِنها: أنَّ مُعظَمَ النَّاسِ كانوا على جَهْلٍ بها، كما أنَّ أدَواتِ الكِتابةِ حينَئذٍ صَعَّبتِ الأمْرَ عليهم؛ إذ كانَتِ الكِتابةُ حينَئذٍ على الحِجارةِ والجُلودِ والرِّقاعِ وسَعَفِ النَّخْلِ وعِظامِ الحَيَواناتِ، ونَحْوِ ذلك، فلم تكنِ الكِتابةُ مُتَيسِّرةً حينَئذٍ، كذلك فإنَّ طَبيعةَ العَيْشِ في زَمانِهم، واهْتِمامَ القَبائِلِ بشُعَرائِها، وحِفْظَ أشْعارِهم ورِوايتَها لم تُحْوِجِ الشُّعَراءَ إلى البَحْثِ عن وَسيلةٍ لحِفْظِ أشْعارِهم؛ فقدْ طفِقَ الرُّواةُ يَحْفظونَها

---

7 المُنَمنَمُ من الأشياء: المُنَقَّشُ المُزَخرَفُ.

ويَتَداوَلونَها عبْرَ الأجْيالِ.

وهذا لا يَعْني أنَّ الكِتابةَ قد تُنوسيتْ ولم يَهتَمَّ بها أحَدٌ حينَئذٍ، بل إنَّ بعضَ الشُّعَراءِ اسْتَخدَمَ الكِتابةَ في كِتابةِ أشْعارِه، وقدِ اشْتَهرَ أمْرُ المُعلَّقاتِ وكِتابتِها وتَعْليقِها داخِلَ الكَعْبةِ، وأنَّ النُّعمانَ بنَ المُنْذِرِ أمَرَ بكِتابةِ بعضِ الأشْعارِ ودَفْنِها تحتَ قَصْرِه، وإنْ كانَ بعضُ العُلَماءِ قد شكَّكَ في صِحَّةِ هذه الأخْبارِ، فإنَّ الكِتابةَ كانَتْ مَعْروفةً في ذلك الحينِ، وأنَّهم عدَلوا عنها إلى الرِّوايةِ الشَّفَهيَّةِ والاعْتِمادِ على الحِفْظِ.

وقد أثَّرَتْ طَبيعةُ أولئك العَربِ، ومَيْلُهم إلى حِفْظِ الصَّدْرِ أكْثَرَ مِن حِفْظِ الكِتابِ، فَضْلًا عن صُعوبةِ الكِتابةِ وأدَواتِها- في حِفْظِ القُرآنِ والحَديثِ عنْدَ ظُهورِ الإسْلامِ؛ فعلى الرَّغْمِ مِن أنَّ الإسلامَ رغَّبَ في الكِتابةِ، فإنَّ السِّمةَ الغالِبةَ في حِفْظِ القُرآنِ كانَتِ الاعْتِمادَ على المَحْفوظِ في الصُّدورِ، وأما تَدْوينُ الحَديثِ فلم يكنْ بيْنَ الصَّحابةِ مَن يَكتُبُ الحَديثَ ويَجمَعُه إلَّا عَدَدٌ قَليلٌ جدًّا؛ وظلَّتْ رِوايةُ الحَديثِ مُعْتمِدةً على النَّقْلِ الشَّفَهيِّ إلى ما قبْلَ نِهايةِ القَرْنِ الأوَّلِ للهِجرةِ، حينَ أمَرَ عُمَرُ بنُ عبْدِ العَزيزِ الإمامَ الزُّهريَّ بجَمْعِ وتَدْوينِ أحاديثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فإذا كانَ القُرآنُ والسُّنَّةُ -على ما لهما مِن أهمِّيَّةٍ وقُدسيَّةٍ عنْدَ المُسلِمينَ- لم يَعْتمِدِ العَربُ على الكِتابةِ في تَدْوينِهما وحِفْظِهما- فلا يُستَغرَبُ أن يكونوا قد اتَّبَعوا ذلِك في الشِّعْرِ الجاهِليِّ.

على أنَّ رِوايةَ الشِّعْرِ في الجاهِليَّةِ وصَدْرِ الإسلامِ لم تَكُنْ صِناعةً مَعْروفةً مَحْدودةً، لها رِجالٌ مَعْروفونَ مُميَّزونَ يَتقلَّدونَ اسمَها، ويَقصِدُهم القاصِدونَ طَلَبًا لِما عنْدَهم مِن مَحْفوظِ الشِّعْرِ والأخْبارِ، ولا كانَ الشُّعَراءُ يُعْطونَ الرُّواةَ أجْرًا على حِفْظِ أشْعارِهم ورِوايتِها، بَلْ كانَ أمْرُ رِوايةِ الشِّعْرِ والأخْبارِ مَوْكولًا كلُّه إلى فِطْرةِ النَّاسِ في التَّلقِّي والتَّذوُّقِ، والحِرْصِ على مَآثِرِ الأهلِ والعَشيرةِ، وحُبِّ التَّغنِّي في حالِ الوَحْدةِ، والوَلوعِ بالإنْشادِ في سَمَرِ اللَّيلِ، والتَّباهي في المَواسِمِ والمَحافِلِ، ونَحْوِ ذلِك مِن دَواعي الحِفْظِ والإنْشادِ والمُفاخَرةِ.

وقد كانَ أكْثَرُ الرُّواةِ هم الشُّعَراءَ؛ حيثُ كانَ الشَّاعِرُ إذا رَأى مِن نفْسِه مَلَكةَ الشِّعْرِ ونَظْمَه لَزِمَ شاعِرًا مِنَ الشُّعَراءِ، يَحفَظُ شِعْرَه ويَرويه، حتَّى تَنْموَ مَلَكتُه وتَتَعزَّزَ مَوْهِبتُه، فمَثَلًا كانَ الأعْشى راوِيةً لِخالِه

المُسيَّبِ بنِ عَلَسٍ، وكانَ يَأخُذُ مِنه، وكانَ زُهَيْرُ بنُ أبي سُلْمى راوِيةً لزَوْجِ أُمِّه الشَّاعِرِ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ، وكانَ كَعْبُ بنُ زُهَيْرٍ والحُطَيئةُ راوِيَينِ لزُهَيْرٍ، وكانَ هُدْبةُ بنُ حشْرَمٍ راوِيةَ الحُطَيْئةِ، وعن هُدْبةَ رَوى جَميلُ بُثَينةَ، وعن جَميلٍ رَوى كُثَيِّرُ عَزَّةَ، وهكذا في سِلْسِلةٍ مِن هؤلاءِ الشُّعَراءِ الرُّواةِ الَّذين يَأخُذُ بعضُهم عن بعضٍ، فجَرَتْ عادةُ الشُّعَراءِ على ذلِك.

وظلَّتِ الرِّوايةُ الشَّفَهيَّةُ للشِّعرِ باقيةً أزْمانًا مُتَتالِيةً في الجاهِليَّةِ وصَدْرِ الإسلامِ، ويَدُلُّ على ذلك أقْوى الدَّلالةِ أنَّ الحَديثَ النَّبويَّ ظلَّ -في أغْلَبِ أحْوالِه- يَعْتمِدُ على الرِّوايةِ والمُشافَهةِ إلى نِهايةِ القَرْنِ الأوَّلِ للهِجرةِ، وإذا كانَ الحَديثُ بما له مِن مَكانةٍ ومَنزِلةٍ قُدسيَّةٍ لم يَعمِدوا إلى تَدْوينِه تَدْوينًا عامًّا إلَّا بعْدَ مُرورِ نَحْوِ قَرْنٍ على الهِجرةِ الشَّريفةِ، فلا يُستَغرَبُ أن يكونوا قدِ اتَّبَعوا ذلِك في الشِّعْرِ الجاهِليِّ.

وقَد كانَ يَشرَكُ الشُّعَراءُ في الاهْتِمامِ برِوايةِ هذا الشِّعْرِ أفْرادُ القَبيلةِ جَميعُهم؛ لأنَّه يُسجِّلُ مَناقِبَ قَوْمِهم وانْتِصاراتِهم في حُروبِهم كما يُسجِّلُ مَثالِبَ أعْدائِهم.

وبِذلك كانَ الشِّعْرُ عنْدَ العَربِ مَبلَغَ هِمَمِهم ومُنْتهى عِلمِهم ورَفيقَ حِلِّهم وتَرحالِهم، ولأجْلِ ذلِك قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: "كانَ الشِّعْرُ عِلمَ قَوْمٍ لم يكنْ لهم عِلمٌ أصَحُّ مِنه".

الفصلُ الرابعَ عشر: الإسلامُ ورِوايةُ الشِّعْرِ

لم يَمنَعِ الإسلامُ مِن رِوايةِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ، بل حَضَّ على رِوايةِ ما حَسُنَ مَعناه وجَزُلَ لَفْظُه، وكانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستَمِعُ إلى الشِّعْرِ ويُحِبُّ رِوايتَه، وكانَ بعضُ الصَّحابةِ رُواةً للشِّعْرِ الجاهِليِّ، فكانَت عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها مِن رُواةِ الشِّعْرِ، وكانَت مِن أعلَمِ النَّاسِ بالشِّعرِ الجاهِليِّ، لا يَرِدُ عليها شيءٌ إلَّا تَمثَّلَتْ فيه شِعْرًا.

وكانَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه يَستمِعُ لِروايةِ الشِّعْرِ؛ فقدْ رُوِيَ عنه أنَّه قالَ لابنِ عبَّاسٍ: (أنْشِدْني لأشْعَرِ شُعَرائِكم. قلتُ: مَن هو يا أميرَ المُؤْمِنينَ؟ قالَ: زُهَيرٌ. قيل: بمَ كانَ ذاك؟ قال: كانَ لا يُعاظِلُ[8] بيْنَ الكَلامِ، ولا يَتَتبَّعُ حُوشيَّه، ولا يَمدَحُ الرَّجُلَ إلَّا بما فيه).

فاسْتَمرَّتِ الرِّوايةُ في الإسلامِ كما كانَت عليه في الجاهِليَّةِ، إلَّا أنَّ العِنايةَ بالشِّعْرِ في عَصْرِ صَدْرِ الإسلامِ قلَّتْ عن العِنايةِ به في الجاهِليَّةِ؛ لانْشِغالِ الصَّحابةِ بالدَّعْوةِ إلى اللهِ والغَزَواتِ والفُتوحاتِ، حتَّى إذا ما انْتَشرَ الإسلامُ وفُتِحتِ البِلادُ ودخَلَ النَّاسُ في دِينِ اللهِ أفْواجًا، رجَعَ العَربُ إلى رِوايةِ الشِّعْرِ على نِطاقٍ واسِعٍ، وأعْطَوْه قِسْطًا كَبيرًا مِن اهْتِمامِهم.

وتَنبُعُ أهمِّيَّةُ الشِّعْرِ الجاهِليِّ بالنِّسبةِ للإسلامِ -فَضْلًا عن كُلِّ ما سبَقَ -في أنَّه ديوانُ العَربيَّةِ، المُفسِّرُ لغَريبِ ما في القُرآنِ، وبه يَعتضِدُ المُفسِّرونَ في تَأويلِ ألفاظِ القُرآنِ الكَريمِ، وفي هذا يقولُ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما: (إذا سَألتُموني عن شيءٍ مِن غَريبِ القُرآنِ فالتَمِسوه في الشِّعرِ؛ فإنَّ الشِّعرَ ديوانُ العَربِ).

وسُؤالاتُ نافِعِ بنِ الأزْرَقِ لابنِ عبَّاسٍ خَيْرُ شاهِدٍ على حَفاوَتِهم بالشِّعْرِ وتَحرِّيهم في رِوايتِه.

واسْتَمرَّ الحالُ على هذا زَمانَ الصَّحابةِ في عُصورِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ، كذلك حرَصَ أُمَراءُ الدَّولةِ الأُمَويَّةِ على ذلِك؛ فقدْ كانَ عبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ كَثيرًا ما يُنشِدُ في مَجلِسِه بَيْتًا مِن الشِّعْرِ، ويَسألُ

---

8 عاظل في كلامه: أدخل بعضه في بعضٍ، وعَقَّدَهُ حتى لا يُفهَمَ إلا بِكَدِّ الخاطر.

النَّاسَ عن صاحِبِه، فمَن أجابَ أَخَذَ جائِزةً على ذلِك.

وقد كانَ مُعاوِيةُ رَضيَ اللهُ عنه يَحُثُّ على رِوايةِ الشِّعْرِ، ويَنتقِصُ مَن لا يَروي مِنه، وقد قالَ: (يَجِبُ على الرَّجُلِ تَأديبُ ولَدِه، والشِّعْرُ أعلى مَراتِبِ الأدَبِ). وقالَ: (اجْعَلوا الشِّعْرَ أكْبَرَ همِّكم، وأَكْثَرَ دَأبِكم؛ فلقد رَأيتُني لَيلةَ الهَريرِ بصِفِّينَ وقد أُتيتُ بفَرَسٍ أغَرَّ مُحجَّلٍ بَعيدِ البَطْنِ مِن الأرْضِ، وأنا أُريدُ الهَرَبَ لشِدَّةِ البَلوى، فما حمَلَني على الإقامةِ إلَّا أبْياتُ عَمْرِو بنِ الإطْنابةِ:

أبَتْ لي هِمَّتي وأبى بَلائـــــي ... وأخْذي الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبيحِ

وإعْطائي على الإعْدامِ مالــي ... وإقْدامي على البَطَلِ المُشيحِ[9]

وقَولي كلَّما جشَأتْ وجاشَتْ ... مَكانَكِ تُحْمَدي أو تَسْتَريحي).

9 المُشِيحُ: الحَامِلُ على قِرنِهِ في الحَربِ.

الفصل الخامس عشر: رِوايةُ الشِّعْرِ في أواخِرِ عَصْرِ بَني أُمَيَّةَ حتَّى تَدْوينِ الشِّعْرِ وكِتابتِه

ظهَرَ في النِّصْفِ الثَّاني مِن عَهْدِ الأُمَويِّينَ رُواةٌ للشِّعْرِ على نَمَطٍ مُختلِفٍ عمَّا كانَ عليه الرُّواةُ قَديمًا؛ فقدْ ذَكَرْنا أنَّ الرُّواةَ كانوا عُمومَ أبْناءِ القَبيلةِ الَّذين يَفخَرونَ بما رَواه شاعِرُهم في ذِكْرِ مَآثِرِهم ونَحْوِ ذلِك، أو كانَ الرُّواةُ مِن الشُّعَراءِ الَّذين يُحسِنونَ رِوايةَ الشِّعْرِ ونَظْمَه، إلَّا أنَّه معَ اسْتِقرارِ الأمْرِ واتِّساعِ رُقْعةِ الدَّولةِ، ظهَرَ الرُّواةُ العُلَماءُ الَّذين انْبَعثوا مِنَ الحَواضِرِ إلى البَوادي، واحْتَرفوا جَمْعَ الشِّعْرِ ورِوايتَه دونَ أن يكونوا مِن أهْلِه الَّذين يَنْظِمونَه ويَقرِضونَه، فاعْتَنَوا بجَمْعِ الشِّعْرِ مُطلَقًا ورِوايتِه، فتَتَبَّعوا الشُّعَراءَ والرُّواةَ في كُلِّ القَبائِلِ والمُدُنِ، فسمِعوا وحفِظوا وضَبَطوا، أو قيَّدوا ما سمِعوه.

ومِن أهَمِّ هؤلاءِ الرُّواةِ أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ، وحَمَّادٌ الرَّاويةُ، وخَلَفٌ الأَحْمَرُ، ومُحمَّدُ بنُ السَّائِبِ الكَلبيُّ، والمُفضَّلُ الضَّبِّيُّ، وغيْرُهم، ومعَ مُرورِ الوَقْتِ وتَشعُّبِ العِلمِ كانَ طَبيعيًّا أن يَنالَ الاختِلافُ مِن هؤلاء ما نالَ أصْحابَهم اللُّغويِّينَ، فتَفرَّقَ الرُّواةُ إلى مَدْرسَتَينِ مُختَلِفتَينِ:

مَدْرَسةُ البَصْرةِ: ورأسُها أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ التَّميميُّ، الإمامُ الثِّقةُ، صاحِبُ القِراءةِ وشَيخُ العَربيَّةِ، وهو أحَدُ مُؤَسِّسي المَدْرَسةِ البَصْريَّةِ في اللُّغةِ والنَّحْوِ.

وتَلاه في تلك المَدْرَسةِ معَ صِدْقِه وأمانتِه وضَبْطِه عبْدُ المَلِكِ بنُ قُرَيبٍ الأصْمَعيُّ، الَّذي عاصَرَ نَظيرَه خَلَفًا الأحْمَرَ المَشْهورَ بالكَذِبِ والوَضْعِ كذلك، إلَّا أنَّ الأصْمَعيَّ كانَ يَقِفُ له ويُفنِّدُ قولَه.

ومَدْرَسةُ الكوفةِ: ورَأسُها حَمَّادُ بنُ سابورَ، المَشْهورُ بحَمَّادٍ الرَّاويةِ، كانَ ماجِنًا كاذِبًا فاسِدَ المُروءةِ، اشْتَهرَ بالوَضْعِ في الرِّوايةِ، معَ كَثْرةِ حِفْظِه وسَعَةِ عِلْمِه، ونَظيرُه في عَدَمِ الضَّبْطِ، والتَّخْليطِ والكَذِبِ: جَنَّادُ بنُ واصِلٍ الكوفيُّ، وكذلك بَرْزَخٌ العَروضيُّ.

وقد حَظِيَتْ مَدْرَسةُ الكوفةِ ببَعضِ الثِّقاتِ الحُفَّاظِ أمْثالِ المُفضَّلِ الضَّبِّيِّ صاحِبِ المُفَضَّليَّاتِ، الَّذي كان عالِمًا بأخْبارِ الجاهِليَّةِ وأيَّامِها وأشْعارِ العَربِ فيها وأنْسابِهم، وقدِ اتَّفقَ البَصْريُّونَ والكوفيُّونَ على فَضْلِه وصِدْقِه وإمامتِه.

وقد عرَفَتْ مَدْرَسةُ البَصْرةِ التَّشدُّدَ في قَبولِ الرِّواياتِ ونِسبةِ الأبْياتِ والقَصائِدِ إلى الشُّعَراءِ المُبرَّزينَ، وهذا أمْرٌ لم تَعْتَدْه مَدْرَسةُ الكوفةِ.

وعلى أيْدي رُواةِ المَدْرستَينِ ومَن بعْدَهم تَمَّ تَدْوينُ الشِّعْرِ الجاهِليِّ على صُوَرٍ وأحْوالٍ مُخْتلِفةٍ؛ فمِنهم مَن دَوَّنَ اخْتِياراتِه مِن الشِّعْرِ؛ كصَنيعِ المُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ في "المُفَضَّليَّاتِ"، والأَصْمَعيِّ في "الأصْمَعيَّاتِ"، وغَيْرِهما، ثُمَّ انْتَشرَتْ حَرَكةُ التَّدْوينِ في اللُّغةِ والأدَبِ والشِّعْرِ عُمومًا؛ وذلِك اسْتِشعارًا مِنهم بحاجةِ النَّاسِ الشَّديدةِ للشِّعْرِ وعِنايتِهم الكَبيرةِ به، ولِخَوْفِ العُلَماءِ على الشِّعْرِ مِن الضَّياعِ، وخاصَّةً عنْدَما فسَدَتِ السَّليقةُ العَربيَّةُ، واخْتَلطَ العَربُ بالأعاجِمِ، فدَوَّنوا الأشْعارَ وكتَبوها خَشيةَ الضَّياعِ أوِ التَّحْريفِ والتَّبْديلِ، واشْتَدَّتْ عِنايتُهم بذلِك، وانْتَشرَتْ حَرَكةُ التَّدْوينِ في اللُّغةِ والأدَبِ والشِّعْرِ، فجاءَتِ الكُتُبُ بعْدَ ذلِك تَترَى، ولولاها لَضاعَ الشِّعْرُ ولَطُمِسَتْ مَعالِمُ اللُّغةِ.

الفصل السادس عشر: قَضيَّةُ الانْتِحالِ

المَقْصودُ بانْتِحالِ الشِّعْرِ هو: قولُ الشِّعْرِ ونِسْبتُه إلى غيْرِ أهْلِه، والكَذِبُ عليهم.

لم يَعرِفِ الجاهِليُّونَ الوَضْعَ في الشِّعْرِ؛ إذ الدَّاعي إلى وَضْعِ الشِّعْرِ وانْتِحالِه وسَرِقتِه هو تَعزيزُ القَبيلةِ، والفَخْرُ بما أنْشَدَه شُعَراؤُها، وقد كانَ في كُلِّ قَبيلةٍ شُعراؤُها الَّذين يُحيونَ مَآثِرَ أقْوامِهم ويَفْتَخِرونَ بأيَّامِهم، وكانَت غايةُ ما يَفعَلُه الشُّعَراءُ أن يَسرِقَ أحَدُهم المَعنى مِن آخَرَ معَ التَّصرُّفِ في ألْفاظِه ونَحْوِ ذلك، أمَّا أن يَسرِقَ قَصيدةً بتَمامِها فيَنسُبَها لنفْسِه أو لأحَدِ شُعَراءِ قَبيلتِه فلا.

وأوَّلُ ما عُرِفَ انْتِحالُ الشِّعْرِ ووَضْعُه كانَ في قُرَيشٍ بعْدَ الإسلامِ، فقالوا على حسَّانَ بنِ ثابتٍ رَضيَ اللهُ عنه مِن الشِّعْرِ ما لا يَليقُ به، ولا يَجوزُ عليه، وقد كانَتْ قُرَيشٌ أقَلَّ النَّاسِ شِعْرًا وشُعَراءَ، ثُمَّ تَواتَرَ الرُّواةُ في الكَذِبِ على الشُّعَراءِ لأسْبابٍ وأغْراضٍ مُخْتلِفةٍ؛ مِنها: تَكْثيرُ الابنِ لشِعْرِ أبيه؛ فإذا كانَ الشَّاعِرُ مُقِلًّا، وكانَ ابنُه راوِيةَ شِعْرِه، فإنَّه يَدفَعُه انْصِرافُ النَّاسِ عنه بعْدَ نَفادِ رِواياتِه أن يَضَعَ مِن نفْسِه شِعْرًا ويَنسُبَه إلى أبيه، كما فعَلَ داودُ بنُ مُتمِّمِ بنِ نُوَيرةَ؛ فإنَّه قدِمَ البَصْرةَ، وظلَّ النَّاسُ يَسْتنشِدونَه أشْعارَ أبيه، حتَّى إذا نفِدَ وهَمَّ القومُ بالانْصِرافِ عنه، بدَأَ يَضَعُ أشْعارًا مِن عنْدِه على مِنوالِ أبيه، يَذكُرُ المَواضِعَ والأيَّامَ والحُروبَ الَّتي كانَ يَذكُرُها أبوه، بَيْدَ أنَّ الأُسلوبَ مُخْتلِفٌ، ففَهِمَ العُلَماءُ أنَّه كانَ يَضَعُها على أبيه.

قالَ ابنُ سلَّامٍ: (فلمَّا راجَعَتِ العَربُ رِوايةَ الشِّعْرِ وذِكْرَ أيَّامِها ومَآثِرَها، اسْتَقلَّ بعضُ العَشائِرِ شِعْرَ شُعَرائِهم، وما ذهَبَ مِن ذِكْرِ وَقائِعِهم، وكانَ قَومٌ قلَّتْ وَقائِعُهم وأشْعارُهم، فأرادوا أن يَلْحَقوا بمَن له الوَقائِعُ والأشْعارُ، فقالوا على ألْسِنةِ شُعَرائِهم، ثُمَّ كانَتِ الرُّواةُ بَعْدُ، فزادوا في الأشْعارِ الَّتي قيلَتْ، وليس يُشكِلُ على أهْلِ العِلمِ زِيادةُ الرُّواةِ، ولا ما وضَعوا، ولا ما وَضَعَ المُولَّدون).

وكانَ مِن تلك الأسْبابِ أيضًا أن يَضَعَ النُّحاةُ أشْعارًا يَنسُبونَها إلى عُصورِ الاحْتِجاجِ؛ إذ لم يُقبَلْ في الشِّعْرِ والنَّثْرِ وأقْوالِ العَربِ ما بعْدَ القَرْنِ الثَّاني الهِجريِّ بالنِّسبةِ للحَضَرِ، والقَرْنِ الرَّابعِ بالنِّسبةِ للبادِيةِ،

فرُبَّما أرادَ بعضُ النُّحاةِ أن يَستدِلَّ لمَذهَبِه بشيءٍ مِن الشَّواهِدِ، فيَضَعُ بَيْتًا أو أبْياتًا ويَنسُبُها للشُّعراءِ الجاهِليِّينَ أو شُعَراءِ صَدْرِ الإسلامِ، وأَكْثَرُ مَن كانَ يَفعَلُ ذلِك أصْحابُ مَدْرَسةِ الكوفةِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ إمامَهم حَمَّادٌ الرَّاوِيةُ، وهو مَنْ هو في الكَذِبِ والانْتِحالِ والوَضْعِ.

كذلك مِن أسْبابِ الوَضْعِ اسْتِشهادُ أصْحابِ المَذاهِبِ العَقَديَّةِ المُنْحرِفةِ، كالمُعْتزِلةِ وأمْثالِهم، بأشْعارٍ مُلَفَّقةٍ لتَعْضيدِ مَذاهَبِهم، مثل استشهادهم على أن الاسْتِواءَ بمَعنى الاسْتِيلاءِ ببَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ يَنسُبونَه للأخْطَلِ، وهو:

حتَّى اسْتَوى بِشْرٌ على العِراقِ   مِن غَيْرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْراقِ

وهذا البَيْتُ غيْرُ صَحيحِ النِّسبةِ إلى الأخْطَلِ، وأغْلَبُ الظَّنِّ أنَّه وُضِعَ خِصِّيصَى لِهذا.

وغَرَضٌ آخَرُ مِن أغْراضِ وَضْعِ الشِّعْرِ وأسْبابِه وهو الشَّواهِدُ على التَّاريخِ، وذلِك أنَّ بعضَ المُؤرِّخينَ وأَكْثَرَ القُصَّاصِ ذهَبوا إلى وَضْعِ الشِّعْرِ للتَّأكيدِ على صِحَّةِ واقِعةٍ مِنَ الوَقائعِ، وذلِك أنَّه ثبَتَ في أفْهامِ بعضِ النَّاسِ أنَّه لا يُقبَلُ خَبَرٌ مِنَ الأخْبارِ إلَّا بالأشْعارِ، حتَّى وضَعَ هؤلاءِ أشْعارًا نسَبوها إلى آدَمَ وسائِرِ الأنْبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكانَ أَكْثَرُ مَن صنَعَ ذلك وأوَّلُهم مُحمَّدَ بنَ إسْحاقَ صاحِبَ السِّيرةِ؛ حيثُ كانَ النَّاسُ يَضَعونَ له الأشْعارَ يَزعُمونَ أنَّها للصَّحابةِ أوِ الجاهِليِّينَ وغيْرِهم، فيأخُذُها عنهم ويَرْويها كما هي، حتَّى رَوى شِعْرًا لمَن لم يَقُلْ شِعْرًا قطُّ، فنسَبَ الشِّعْرَ لقَوْمِ عادٍ وثَمودَ، وقد كانَ أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ يقولُ: لو كانَ الشِّعْرُ مِثلَ ما وُضِعَ لابنِ إسْحاقَ، ومِثلَ ما يَرْوي الصَّحَفيُّونَ ما كانَتْ إليه حاجةٌ، ولا كانَ فيه دَليلٌ على عِلمٍ.

وكانَ مِن أعْظَمِ أسْبابِ الوَضْعِ وانْتِحالِ الشِّعْرِ اتِّساعُ الرِّوايةِ، وذلِك أن يَأتِيَ الرَّاوي فيَضَعَ مِن نفْسِه شِعْرًا لشاعِرٍ مُعيَّنٍ، حتَّى يَسْتكثِرَ به مَحْفوظَه مِنه، ويَزعُمَ أنَّه يَرْوي ما لا يَرْويه الآخَرونَ، خاصَّةً إذا كانَ الرَّاوي عالِمًا بالشِّعْرِ وضُروبِه، يُحسِنُ أن يَنسِجَ الشِّعْرَ على نَسْجِ شاعِرٍ ما، وقد كانَ إمامُ ذلِك حَمَّادًا الرَّاوِيةَ، وإنَّما سُمِّيَ الرَّاوِيةَ لاتِّساعِه في الرِّوايةِ، وكانَ كذَّابًا ماجِنًا يَضَعُ الأشْعارَ ويَنسُبُها إلى غيْرِه. قالَ المُفضَّلُ الضَّبِّيُّ: سُلِّطَ على الشِّعْرِ مِن حَمَّادٍ الرَّاوِيةِ ما أفْسَدَه فلا يَصلُحُ أبدًا! فقيلَ له:

وكيف ذلك، أيُخطِئُ في رِوايتِه أم يَلحَنُ؟ قال: ليته كانَ ذلك؛ فإنَّ أهْلَ العِلمِ يَردُّونَ مَن أخْطَأَ إلى الصَّوابِ، ولكنَّه رَجُلٌ عالِمٌ بلُغاتِ العَربِ وأشْعارِها ومَذاهِبِ الشُّعَراءِ ومَعانيهم، فلا يَزالُ يقولُ الشِّعْرَ يُشبِهُ به مَذهَبَ رَجُلٍ ويُدخِلُه في شِعْرِه، ويُحمَلُ ذلِك عنه في الآفاقِ، فتَخْتلِطُ أشْعارُ القُدَماءِ ولا يَتميَّزُ الصَّحيحُ مِنها إلَّا عنْدَ عالِمٍ ناقِدٍ، وأين ذلِك؟!

قالَ ابنُ سَلَّامٍ: (وليس يُشكِلُ على أهْلِ العِلمِ زِيادةُ الرُّواةِ، ولا ما وضَعوا ولا ما وضَعَ المُولَّدونَ، وإنَّما عَضَلَ بهم أن يَقولَ الرَّجُلُ مِن أهْلِ البادِيةِ مِن ولَدِ الشُّعَراءِ، أو الرَّجُلُ ليس مِن ولَدِهم، فيُشكِلَ ذلك بعضَ الإشْكالِ).

الفصل السابع عشر: التَّشْكيكُ في الشِّعْرِ الجاهِليِّ عامَّةً

وجَدَ المُسْتَشرِقونَ ضالَّتَهم في قَضيةِ انْتِحالِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ، ووَضْعِ الرُّواةِ للأشْعارِ، ونِسبتِها للشُّعَراءِ القُدامى، فانْتَقلوا مِن هذه القَضيَّةِ إلى زَعْمٍ مِنهم أنَّ الشِّعْرَ الجاهِليَّ كلَّه -إضافةً إلى شِعْرِ صَدْرِ الإسلامِ- مَوْضوعٌ، نسَجَه أولئك الرُّواةُ الَّذين وصَمَهم مُعاصِروهم بالكَذِبِ مِن أمْثالِ حَمَّادٍ الرَّاوِيةِ، وخَلَفٍ الأحْمَرِ، وجَنَّادٍ، وبَرْزَخٍ، وغيْرِهم.

وقد بدَأَ هذه المَزاعِمَ "نولدكه" ثُمَّ "آلورد"، الَّذي شكَّكَ في الشِّعْرِ الجاهِليِّ عامَّةً إلَّا قِلَّةً قَليلةً مِنه، وتابَعَه على ذلِك كَثيرٌ مِنَ المُسْتشرِقينَ، مِثلُ موير، وبروكلمان، وباسيه.

إلَّا أنَّ أكْبَرَ مَن أثارَ تلك الشُّبْهةَ هو مرجليوث؛ إذ كتَبَ فيها مَقالًا مُفَصَّلًا نشَرَه في مَجلَّةِ الجَمعيَّةِ المَلَكيَّةِ الآسيَويَّةِ وذهب إلى أنَّ الشِّعْرَ الجاهِليَّ والإسْلاميَّ إلى زَمانِ الدَّولةِ الأُمَويَّةِ كلَّه مَوْضوعٌ مِن رُواةِ الشِّعْرِ الإسلاميِّ آنَذاك، وكانَ قد اسْتَندَ على عِدَّةِ أسْبابٍ دفَعَتْه -ظاهِرًا وإلَّا فأحْقادُهم باعِثةٌ على كُلِّ شَرٍّ- إلى القَولِ بذلِك:

-أنَّ العَربَ الجاهِليِّينَ لم يَكتُبوا ذلِك الشِّعْرَ ويُدوِّنوه، ويَنْفي أن تكونَ مَلَكةُ الحِفْظِ والرِّوايةِ هي الَّتي نقَلَتْ كُلَّ هذا الكَمِّ مِن الأشْعارِ والقَصائِدِ.

-أنَّ هؤلاء الرُّواةَ الَّذين نقَلوا الشِّعْرَ قد كذَّبَ بعضُهم بعضًا، واتَّهمَهم المُؤرِّخونَ والعُلَماءُ بوَضْعِ الشِّعْرِ وتَلْفيقِه.

-أنَّ ذلِك الشِّعْرَ الجاهِليَّ لا يَتَّفِقُ معَ الحَياةِ الوَثنيَّةِ الَّتي كانَتْ عليها العَربُ قبْلَ الإسلامِ، بل يَتَّفِقُ معَ الإسلامِ في ذِكْرِ قِصَصِه وأخْبارِ الأنْبياءِ، والتَّذْكيرِ بالحِسابِ واليومِ الآخِرِ.

-أنَّ القُرآنَ والشِّعْرَ يَتَّفِقانِ في اللُّغةِ والمُسْتوى، ويُفْتَرَضُ أن يكونَ الشِّعْرُ الجاهِليُّ يُشكِّلُ صُوَرًا مُخْتلِفةً مِن اللَّهَجاتِ باخْتِلافِ أصْحابِها، وهذا لم يَحدُثْ، بل كُلُّ الشِّعْرِ جاءَ على نفْسِ لُغةِ القُرآنِ ولَهْجتِه، وهي لَهْجةُ قُرَيشٍ.

-لا يُنكَرُ أنَّ العَربَ قبْلَ الإسلامِ كان فيهم الشُّعَراءُ، غيْرَ أنَّ ذلِك المُسْتوى الَّذي وصَلَ مِن شِعْرِ الجاهِليِّينَ لا يُعبِّرُ إلَّا عن تَطوُّرٍ بالِغٍ ورُقِيٍّ في الأُسلوبِ، فيَبْدو أنَّ ذلِك مِن تَأثُّرِ العَربِ بالقُرآنِ، فلمَّا وصَلَهم القُرآنُ بأُسلوبِه البَليغِ تأثَّروا به وكتَبوا على مِنْوالِه.

-تُفيدُ النُّقوشُ الَّتي عُثِرَ عليها أنَّ القَوْمَ كانَ لديهم بعضُ الحَضارةِ والرُّقيِّ، لكنْ لم يَظهَرْ نَقْشٌ يُفيدُ وُجودَ الشِّعْرِ في العَربِ قبْلَ الإسلامِ.

-القُرآنُ الكَريمُ كانَ يُهاجِمُ الشِّعْرَ والشُّعَراءَ، فقالَ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، وقالَ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، وقالَ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾، فكيف يُهاجِمُ الشِّعْرَ ثُمَّ يُبيحُ للمُسلِمينَ أن يَرْووه ويَتَعلَّموه ويَحْفَظوه كما يَحْفَظون القُرآنَ؟!

وقد تَناسى مرجليوث أنَّ النَّقْلَ الشَّفَهيَّ الَّذي نقَلَ الشِّعْرَ الجاهِليَّ وتَكفَّلَ بحِفْظِه هو الَّذي حفِظَ القُرآنَ والسُّنَّةَ إلى أن جُمِعا ودُوِّنا.

أمَّا كَذِبُ الرُّواةِ فليس مِن الإنْصافِ أن نُسقِطَ جَميعَ الرُّواةِ؛ لأنَّ فيهم بعضَ الكَذَبةِ الوَضَّاعينَ، بل إنَّ سائِرَ الرُّواةِ كالأصْمَعيِّ والمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ ونَحْوِهما كانوا يَقِفون لهم.

أمَّا أن يكونَ الشِّعْرُ الجاهِليُّ خالِيًا مِن ذِكْرِ الأوْثانِ والحَياةِ الَّتي كانوا عليها، فحَسْبُكَ بكِتابِ "الأصْنام" لابنِ السَّائِبِ الكَلبيِّ، فإنَّ فيه كِفايةً في الرَّدِّ والتَّفْنيدِ لتلك الشُّبْهةِ، فَضْلًا عنِ امْتِلاءِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ بالعَصَبيَّةِ القَبَليَّةِ والأخْذِ بالثَّأرِ ونَحْوِ ذلِك.

وأمَّا شُبْهةُ أنَّ الشِّعْرَ الجاهِليَّ لم يَحمِلْ مِن اللَّهَجاتِ الأخرى، فلِأنَّ الشَّاعِرَ إذا أرادَ لشِعْرِه الخُلودَ والبَقاءَ والانْتِشارَ فإنَّه يَكتُبُه باللَّهْجةِ السَّائِدةِ آنَئِذٍ، وهي لَهْجةُ قُرَيشٍ، لِما احْتَلَّتْه قُرَيشٌ مِن مَكانةٍ اقْتِصاديَّةٍ وسِياسيَّةٍ ودينيَّةٍ.

وادِّعاؤه بأنَّ هذا الشِّعْرَ كانَ تَطوُّرًا لأُسلوبِ القُرآنِ، فإنَّ ثَمَّةَ فُروقًا بيْنَ القُرآنِ والشِّعْرِ، فالقَواعِدُ والقَوانينُ الَّتي تَحكُمُ الشِّعْرَ لا تُؤثِّرُ في أُسلوبِ القُرآنِ، كما أنَّ القُرآنَ جاءَ سَهْلًا مِن غيْرِ تَكلُّفٍ لبعضِ ألْفاظِه، وكذلك وُجودُ الشِّعْرِ على هذه الصُّورةِ لا يَعْني أنَّه تَطوَّرَ عن أُسلوبٍ آخَرَ؛ فإنَّ الشِّعْرَ

الجاهِليَّ قَديمٌ جدًّا.

ولا عِبرةَ لرُقِيِّ القَوْمِ وتَخلُّفِهم بانْحِطاطِ الشِّعْرِ ورُقِيِّه، فكَمْ مِن أقْوامٍ أجْلافٍ غِلاظٍ يُعانون مِن شَظَفِ العَيْشِ[10]، وحِسُّهم مُرهَفٌ مُتَفتِّقٌ بالشِّعْرِ.

أمَّا هُجومُ القُرآنِ على الشِّعْرِ فهذا أمْرٌ قد ذَكَرناه سابِقًا، وذَكَرنا اسْتِشهادِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصْحابِه بالشِّعْرِ، واسْتِنشادِهم له.

وعلى خُطا مرجليوث جاءَ طه حسين، الَّذي انْتَهجَ نَهْجَ سابِقِه في إنْكارِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ، بَيْدَ أنَّه أنْكرَ أغْلَبَ ذلِك، وزعَمَ أنَّ بعضَ ما وصَلَ إلينا صَحيحُ النِّسبةِ إلى الجاهِليِّينَ، بَيْدَ أنَّه غيْرُ مَعْلومٍ تَحْديدًا.

وقد أكْثَرَ العُلَماءُ والمُؤَرِّخون مِن الرَّدِّ على طه حسين، وغيْرُهم، وألَّفوا في ذلِك الكُتُبَ والمُصنَّفاتِ.

وهذه الفِكرةُ إنَّما وضَعَها المُسْتشرِقونَ لكي تَخدُمَ أغْراضَهم الخَبيثةَ الَّتي تَسْعى إلى التَّشْكيكِ في القُرآنِ وفي نُبوَّةِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهَدْمِ تُراثِ الإسلامِ؛ فإذا كانَ شِعْرُ الجاهِليَّةِ مَنْحولًا[11] فمَعنى ذلِك أنَّ الجاهِليِّينَ لم يكنْ لديهم عِلمٌ ولا ثَقافةٌ، ولم تَمْتَزْ لُغتُهم من باقي اللُّغاتِ، فإذا كانَ الأمْرُ كذلك فإنَّ القُرآنَ نزَلَ على قَوْمٍ سُذَّجٍ لا عِلمَ لهم ولا فِكرَ؛ لذلك أعْجَزَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأقامَ عليهم الحُجَّةَ، ولو كانَ الجاهِليُّونَ أهْلَ عِلمٍ ولُغةٍ لَما تأثَّروا بالقُرآنِ ولَما أعْجَزَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولَتمكَّنوا مِن مُعارَضتِه.

يقولُ الدُّكتورُ مُحمَّد أبو موسى في أحَدِ دُروسِه بالجامِعِ الأزْهَرِ: "الطَّعْنُ في الشِّعْرِ الجاهِليِّ طَعْنٌ في الإعْجازِ؛ فلو قلتَ: إنَّ سَحَرَةَ فِرْعونَ كانوا ضِعافًا في السِّحْرِ، كانَ ذلك طَعْنًا في مُعْجزةِ موسى عليه السَّلامُ".

وخُلاصةُ الأمْرِ أنَّ ما ثبَتَ لدينا مِن طَريقِ الرُّواةِ الثِّقاتِ، وما صحَّحَ نِسبتَه الأئِمَّةُ العُلَماءُ إلى الشُّعَراءِ

---

10 شَظَفُ العَيشِ: ضِيقُهُ وَشِدَّتُهُ.

11 المنحول من الشعر: ما وُضِعَ ونُسِب باطِلًا لِغَيرِ قَائِلِه.

الجاهِليِّينَ والإِسْلاميِّينَ، فهو ثابِتُ النَّسَبِ لدينا، لا نَشُكُّ في أَنَّهم قالوه، وهو أَحَدُ مَصادِرِ اللُّغةِ والنَّحْوِ، وعليه اعْتِمادُ النُّحاةِ والمُفَسِّرينَ والإِخْبارِيِّينَ.

الفصل الثامن عشر: مصادر الأدب الجاهلي

لمَّا دخَلَ التَّدْوينُ على الشِّعْرِ الجاهِليِّ، اخْتَلَفَتْ هِمَمُ المُصنِّفينَ وأَغْراضُهم؛ فمِنهم مَن كان يَنْتَقي بعضَ الأَشْعارِ ويَنْتَخِبُها انْتِخابًا، فلا يُدَوِّنُ غيْرَها وإن عرَضَتْ له آلافُ القَصائِدِ، وإن كانَ راوِيةً لكَثيرٍ مِن الشُّعَراءِ، ومِنهم مَن عكَفَ على شِعْرِ شاعِرٍ واحِدٍ يَجمَعُه في ديوانٍ، أو حرَصَ على إحْياءِ شِعْرِ قَبيلتِه، فجَمَعَها فيما يُسمَّى ديوانَ القَبيلةِ. وباجْتِماعِ الفِئَتَينِ معًا حافَظَ العُلَماءُ على أَكْثَرِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ مِن الضَّياعِ والنِّسْيانِ؛ لأنَّه تُراثُ العَربيَّةِ الأَكْبَرُ ومَنبَعُ العُروبةِ الأنْقَى، فأخَذوا يَرْوونَه ويَتَناقلونَه جيلًا بعْدَ جيلٍ، فجَمَعوا ما تَفرَّقَ مِن الشِّعْرِ، ولم يَألوا جُهدًا في التَّثَبُّتِ والتَّمْحيصِ، حتَّى جُمِعَ عَدَدٌ مِن الشِّعْرِ المُتفرِّقِ في دَواوينَ مَنْسوبةٍ إلى أَصْحابِها، يُرفَعُ إسْنادُها إلى الطَّبَقةِ الأُولى أو إلى تَلاميذِهم مِن عُلَماءِ الطَّبَقةِ الثَّانيةِ، تَحْوي بيْنَ دَفَّتَيها شِعْرَ العَصْرِ الجاهِليِّ.

وهذا تَعْريفٌ مُوجَزٌ بأَبْرَزِ مَصادِرِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ:

1- المُعلَّقات:

هذا هو الاسمُ المَشْهورُ لعَدَدٍ مِن القَصائِدِ الطِّوالِ، وقد اخْتُلِفَ في عَدَدِها، وأَسْمائِها، وفي أَصْحابِها. واخْتَلفوا كذلك في سَبَبِ تَسْميتِها بالمُعلَّقاتِ؛ فقيلَ: إنَّها اختيرَتْ مِن سائِرِ الشِّعْرِ فكُتِبتْ بماءِ الذَّهَبِ -ولِهذا تُسمَّى المُذَهَّباتِ- وكانَتْ تُعلَّقُ على الكَعْبةِ في مَواسِمِ الحَجِّ. وزعَمَ بعضُهم أنَّ العَرَبَ كانوا يَسْجُدون لها كما يَسْجُدون للأَصْنامِ. وقيلَ: كانَتْ تُعلَّقُ في خَزائِنِ المُلوكِ؛ فإنَّ المَلِكَ كانَ إذا اسْتَجادَ قَصيدةً قالَ: علِّقوا هذه. وقيلَ: إنَّما سُمِّيتْ بهذا لأنَّها جَديرةٌ أن تُعَلَّقَ في الأذْهانِ، كما تُعلَّقُ القِلادةُ على الصُّدورِ. وهذا الأخيرُ هو الرَّاجِحُ، خاصَّةً إذا قلْنا: إنَّ الَّذي جَمَعَ تلك المُعلَّقاتِ هو حَمَّادٌ الرَّاوِيةُ.

وقدِ اخْتَلَفَ العُلَماءُ في تَعْيينِ تلك القَصائِدِ، وعليه اخْتَلفوا في تَحْديدِ عَدَدِها وأصْحابِها، غيْرَ أنَّهم جَميعًا أجْمَعوا على خَمْسةٍ مِنها، وهي:

1- مُعلَّقةُ امْرِئِ القَيْسِ، ومَطلَعُها:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبيبٍ ومَنزِلِ   بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخولِ فحَوْمَلِ

2- مُعلَّقةُ زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمى، ومَطلَعُها:

أَمِنْ أُمِّ أَوفى دِمنَةٌ لم تَكَلَّـــــمِ   بِحَوْمانةَ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّـــــــمِ

3- مُعلَّقةُ طَرَفةَ بنِ العَبْدِ، ومَطلَعُها:

لِخَولَةَ أطْلالٌ ببُرقَةِ ثَهْمَــــــدِ   تَلوحُ كباقِي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَـدِ

4- مُعلَّقةُ عَمْرِو بنِ كُلْثومٍ، ومَطلَعُها:

ألَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فاصْبَحينـــــا   ولا تُبْقِي خُمورَ الأَنْدَرينـــــــا

5- مُعلَّقةُ لَبيدِ بنِ رَبيعةَ، ومَطلَعُها:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فمُقامُهــــا   بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُهـــــــا

وأضافَ ابنُ عبْدِ ربِّه قَصيدتَي عَنْتَرةَ بنِ شدَّادٍ، ومَطلَعُها:

هل غادَرَ الشُّعَراءُ مِن مُتَــــرَدَّمِ   أَمْ هل عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّـــمِ

والحارِثِ بنِ حِلِّزةَ، ومَطلَعُها:

آذَنَتْنا ببَيْنِها أَسْمـــــــــــاءُ   رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنه الثَّـــــــــواءُ

في حينِ أضافَ أبو زَيدٍ القُرَشيُّ والمُفضَّلُ الضَّبِّيُّ بَدَلًا مِنهما قَصيدتَي النَّابِغةِ الذُّبْيانيِّ، ومَطلَعُها:

يا دارَ مَيَّةَ بِالعَلْياءِ فالسَّنَــــــدِ   أَقْوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأَبَـــدِ

وقَصيدةِ الأعْشى مَيْمونِ بنِ قَيْسٍ، ومَطلَعُها:

وَدِّعْ هُرَيرةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِــلُ   وهل تُطيقُ وَداعًا أيُّها الرَّجُـــــلُ

وجمَعَ أبو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ بيْنَ القَوْلَينِ، فجَعَلَ المُعلَّقاتِ تِسْعًا لا سَبْعًا؛ القَصائِدَ الخَمسَ المُتَّفَق

عليها، والأرْبَعةَ المُخْتلَفَ فيها.

ثُمَّ جاءَ الخَطيبُ التَّبْريزيُّ فأقَرَّ صَنيعَ أبي جَعْفَرٍ النَّحَّاسِ، وزادَ بائيَّةَ عَبيدِ بنِ الأبْرَصِ الَّتي مَطلَعُها:

أَقفرَ مِن أَهْلِهِ مَلْحـــــــوبُ   فَالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنـــــــــــــــوبُ

فالمُعلَّقاتُ عنْدَ ابنِ عبْدِ ربِّه وأبي زيدٍ والمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ سَبْعُ قَصائِدَ، وهي عنْدَ أبي جَعْفَرٍ النَّحَّاسِ تِسْعٌ، وعنْدَ الخَطيبِ التَّبْريزيِّ عَشْرٌ. وكلُّ أصْحابِ المُعلَّقاتِ جاهِليُّونَ إلَّا لَبيدًا؛ فإنَّه مُخَضرَمٌ أدْرَكَ الجاهِليَّةَ والإسلامَ، وأسْلَمَ رَضيَ اللهُ عنه.

2- المُفَضَّليَّات:

وهي للمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ الكوفيِّ، جمَعَ فيها بعضَ القَصائِدِ والمَقْطوعاتِ الشِّعْريَّةِ، الَّتي انْتَخبَها انْتِخابًا مِن عُيونِ الشِّعْرِ، مُوزَّعةً على سَبْعةٍ وستِّينَ شاعِرًا؛ سَبْعةٌ وأرْبعونَ مِنهم جاهِليُّونَ، كالمُرقِّشِ الأكْبَرِ والأصْغَرِ، والحارِثِ بنِ حِلِّزةَ، وعَلْقَمةَ بنِ عَبْدةَ الفَحْلِ، والشَّنْفَرى، وتَأبَّطَ شرًّا، وغيْرِهم، وأرْبَعةَ عشَرَ شاعِرًا مُخَضرَمًا، أدركوا الجاهِليَّةَ والإسلامَ، وسِتةٌ مِن الشُّعَراءِ الإسلاميِّينَ.

وقد أفادَتِ المُفَضَّليَّاتُ كَثيرًا في بَيانِ نَواحي الحَياةِ الجاهِليَّةِ، فأظْهَرَتْ أيَّامَ الحَرْبِ وحَوادِثَها، وعَلاقاتِ القَبائِلِ بعضِها ببعضٍ، وعَلاقتَها بمُلوكِ الحِيرةِ والغَساسِنةِ، فَضْلًا عمَّا فيها مِن الألْفاظِ المَهْجورةِ والكَلِماتِ المُنْدثِرةِ الَّتي لم يَرِدْ ذِكْرُها في المَعاجِمِ اللُّغويَّةِ. ناهيك عمَّا فيها مِن عَيْنِ الشِّعْرِ وجَيِّدِه.

3- الأصْمَعيَّات:

هي مَجْموعةٌ شِعْريَّةٌ تُنسَبُ إلى راويها عبْدِ المَلِكِ بنِ قُرَيبٍ الأصْمَعيِّ، اسْتكمَلَ بها بعضًا مِن عُيونِ الشِّعْرِ مِن القَصائِدِ والمَقْطوعاتِ الَّتي فاتَتِ المُفَضَّلَ الضَّبِّيَّ في المُفَضَّليَّاتِ، وتَتألَّفُ مِن اثْنَتَينِ وتِسْعينَ قَصيدةً ومَقْطوعةً، لواحِدٍ وسَبْعينَ شاعِرًا، مِنهم أرْبعةٌ وأرْبعونَ شاعِرًا جاهِليا، وأرْبَعةَ عشَرَ مُخَضرَمًا، وسِتَّةٌ مِن الإسلاميِّينَ، وسَبْعةُ مَجْهولينَ. والقَصائِدُ الكامِلةُ فيها أَكْثَرُ عَدَدًا مِن المَقْطوعاتِ.

وقد اقْتَدى الأَصْمَعيُّ بالمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ في إيثارِ الشُّعَراءِ المُقِلِّينَ، الَّذين لا يُرْوى عنهم شِعْرٌ كَثيرٌ، وقد قيلَ: إنَّه اخْتارَ تلك المَجْموعةَ لِهارونَ الرَّشيدِ.

وتَتَجلَّى في "الأَصْمَعيَّاتِ" بَراعةُ الأَصْمَعيِّ نَحْويًّا ولُغَويًّا، وتَعكِسُ عَقْليَّةَ عالِمٍ لُغويٍّ خَبَرَ الشِّعْرَ الجاهِليَّ وعرَفَه حَقَّ المَعْرفةِ.

وقد أَوْرَدَ عندَ بعضِ القَصائِدِ نِقاطًا مُهِمَّةً في بَيانِ مُناسَبةِ النَّصِّ وتَفْسيرِ بعضِ غَريبِه. وقد أَوْرَدَ فيه أَشْعارَ شُعَراءَ، مِثْلُ: امْرِئِ القَيْسِ، والحارِثِ بنِ حِلِّزةَ، ودُرَيدِ بنِ الصِّمَّةِ، وعُرْوةَ بنِ الوَرْدِ، وطَرَفةَ، وقَيْسِ بنِ الخَطيمِ، والسَّمَوألِ بنِ عادِياءَ اليَهوديِّ وغيْرِهم.

وتُعَدُّ الأَصْمَعيَّاتُ مِثلَ المُفَضَّليَّاتِ في الثِّقةِ بها؛ لأنَّها تُلْقي ضَوءًا كاشِفًا على حَياةِ العَربِ، وتُقَدِّمُ نَماذِجَ لأَغْراضِ شِعْرِهم، مِثْلُ الغَزَلِ والرِّثاءِ والمَديحِ، والوَصْفِ والهِجاءِ.

4- جَمهَرةُ أشعارِ العَرب:

نُسِبَتْ الجَمْهَرةُ إلى أبي زيدٍ مُحمَّدِ بنِ أبي الخَطَّابِ القُرَشيِّ، اخْتَلَفَ المُؤَرِّخونَ في تَحْديدِ سَنةِ وَفاتِه والعَصْرِ الَّذي عاشَ فيه؛ حيثُ نَصَّ الزِّرِكْليُّ والبابانيُّ البَغْداديُّ على أنَّه تُوفِّيَ سَنةَ (170هـ)، في حينِ رجَّحَ آخَرونَ أنَّه عاشَ في أواخِرِ القَرْنِ الثَّالِثِ الهِجريِّ أو أوائِلِ القَرْنِ الرَّابعِ؛ وذلِك أنَّ بيْنَه وبيْنَ رُواةِ القَرْنِ الثَّاني جيلَينِ أو ثَلاثةً، كما يَتَّضِحُ مِن مُقدِّمتِه لكِتابِه وما نقلَه عنِ الرُّواةِ؛ فالوَسائِطُ بيْنَه وبيْنَهم في السَّنَدِ غيْرُ بَعيدةٍ، وقد ذَكَرَه ابنُ رَشيقٍ المُتَوفَّى سَنةَ (463هـ) في كِتابِه العُمْدة.

وتَحْتوي الجَمْهَرةُ على نَماذِجَ جيِّدةٍ لشُعَراءِ العَصْرِ الجاهِليِّ والإسلاميِّ، صَدَّرَها صاحِبُها بمُقدِّمةٍ أَوْرَدَ فيها بعضَ الأَحْكامِ النَّقْديَّةِ، وشيئًا مِن أَخْبارِ كِبارِ الشُّعَراءِ في الجاهِليَّةِ؛ كزُهَيْرٍ، والنَّابِغةِ، ولَبيدٍ، والأَعْشى، وعَمْرِو بنِ كُلْثومٍ.

وقد زلَّتْ قَدَمُ أبي زيدٍ حينَ نسَبَ الشِّعْرَ إلى آدَمَ عليه السَّلامُ وإلى العَمالِقةِ، كما صدَّقَ زَعْمَ أنَّ الشَّياطينَ تُوحي الشِّعْرَ إلى الشُّعَراءِ، وأنَّ لكُلِّ شاعِرٍ قَرينًا مِن الجِنِّ.

وقد قسَّمَ القُرَشيُّ جَمْهَرتَه أقْسامًا سَبْعةً، كلُّ قِسْمٍ مِنها يَتَضمَّنُ بعضَ القَصائِدِ، ويَحمِلُ اسمًا خاصًّا:

القَسْمُ الأوَّلُ: المُعلَّقاتُ: ويَتَضمَّنُ المُعلَّقاتِ السَّبْعَ الَّتي اعْتبَرها، وهي قَصائِدُ كُلٍّ مِن: امْرِئِ القَيْسِ وزُهَيْرٍ، والنَّابِغةِ والأعْشى، ولَبيدٍ وعَنْترةَ.

القَسْمُ الثَّاني: المُجَمْهَراتُ: ومَعناها المُحْكَمةُ السَّبْكِ، نِسبةً إلى وَصْفِ النَّاقةِ القَويَّةِ بالمُجَمْهَرةِ، ويَشْتمِلُ هذا القِسْمُ على قَصائِدَ لعَبيدِ بنِ الأبْرَصِ، وعَديِّ بنِ زيدٍ، وبِشْرِ بنِ أبي خازِمٍ، وأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ، وخِداشِ بنِ زُهَيْرٍ، والنَّمِرِ بنِ تَوْلَبٍ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: المُنْتَقَياتُ: وهي قَصائِدُ انْتَقاها للمُسَيَّبِ بنِ عَلَسٍ، والمُرَقِّشِ الأصْغَرِ، والمُتَلَمِّسِ، وعُرْوةَ بنِ الوَرْدِ، والمُهَلْهِلِ بنِ رَبيعةَ، ودُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ، والمُتَنَخِّلِ بنِ عُوَيْمِرٍ الهُذَليِّ.

القِسْمُ الرَّابِعُ: المُذهَّباتُ: ضَمَّنَه قَصائِدَ لحَسَّانَ بنِ ثابِتٍ، وعبْدِ اللهِ بنِ رَواحةَ، ومالِكِ بنِ العَجْلانِ، وقَيْسِ بنِ الخَطيمِ، وأُحَيْحةَ بنِ الجُلاحِ، وأبي قَيْسِ بنِ الأَسْلَتِ، وعَمْرِو بنِ امْرِئِ القَيْسِ.

القِسْمُ الخامِسُ: المَراثي: جاءَ فيه بسَبْعِ قَصائِدَ جيِّدةٍ مِن المَراثي المَشْهورةِ، **مِثْلُ عَيْنيَّةِ أبي ذُؤَيبٍ الهُذَليِّ المَشْهورةِ، وصَدْرُها:**

أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تَتوجَّعُ؟

والدَّهْرُ ليسَ بمُعْتِبٍ مَن يَجزَعُ

ويائِيَّةِ مالِكِ بنِ الرَّيْبِ الَّتي رَثى بها نفْسَه، وصَدْرُها:

ألَا ليتَ شِعْري هلْ أَبيتَنَّ لَيْلةً

بِجَنْبِ الغَضا أُزْجي القِلاصَ النَّواجيا

وعَيْنيَّةِ مُتَمِّمِ بنِ نُوَيْرةَ، ومَطلَعُها:

لَعَمْري، وما دَهْري بِتَأبينِ مالِكٍ

ولا جَزِعًا مِمَّا أَصابَ، فأَوْجَعا

وقَصيدةٍ لِذي جَدَنٍ الحِمْيَريِّ، ومَطلَعُها:

لِكلِّ جَنبٍ اجْتَنى مُضطجَعْ

وَالمَوْتُ لا يَنفَعُ مِنهُ الجَزَعْ

وأخرى لمُحمَّدِ بنِ كَعْبٍ الغَنَوِيِّ رثى فيها أخاه، ومَطلَعُها:

تَقولُ ابنةُ العَبْسيِّ قَدْ شِبْتَ بَعْدَنا

وكُلُّ امْرِئٍ بَعْدَ الشَّبابِ يَشيبُ

ومَرْثِيَّةٍ لأعْشى باهِلةَ في أخيه، وصَدْرُها:

إنِّي أتَتْني لِسانٌ ما أُسَرُّ بِها

مِن عَلْوُ لَا عَجَبٌ فيها ولا سَخَرُ

ثُمَّ مَرْثِيَّةٍ لأبي زُبَيْدٍ الطَّائِيِّ في أخيه الجُلاحِ، ومَطلَعُها:

إنَّ طُولَ الحَياةِ غيْرُ سُعودِ

وضلالٌ تَأْميلُ طُولِ الخُلودِ

القِسْمُ السَّادِسُ: المَشوباتُ: وهي الَّتي شابَها الكُفْرُ معَ الإسلامِ؛ مِثلُ رائيَّةِ النَّابِغةِ الجَعْديِّ، ولاميَّةِ كَعْبِ بنِ زُهَيْرٍ المَشْهورةِ بالبُرْدةِ، ولاميَّةِ القطاميِّ، ولاميَّةِ الحُطَيْئةِ، وقَصيدةٍ زاييَّةٍ للشَّمَّاخِ، ورائيَّةٍ لعَمْرِو بنِ أحْمَرَ، ونونيَّةٍ لتَميمِ بنِ مُقْبِلٍ العامِريِّ.

القِسْمُ السَّابعُ والأخيرُ: المَلْحَماتُ: أيِ الَّتي تَلاحَمَتْ أجْزاؤُها. ويَتَضمَّنُ سَبْعَ قَصائِدَ مَشْهورةٍ لسَبْعةٍ مِن الفُحولِ؛ هُمْ: الفَرَزْدَقُ وجَريرٌ والأخْطَلُ، والرَّاعي، وذو الرُّمَّةِ، والكُمَيْتُ، والطِّرِمَّاحُ بنُ حَكيمٍ.

5- مُخْتاراتُ ابنِ الشَّجَريِّ:

أوْرَدَ ابنُ الشَّجَريِّ في "مُخْتاراتِه" بعضًا مِن القَصائِدِ الغُرِّ النَّوادِرِ، غيْرَ أنَّه جعَلَ كِتابَه ثَلاثةَ أقْسامٍ:

القِسْمُ الأوَّلُ :ضمَّنَه اثْنَتَي عشْرةَ قَصيدةً للشُّعَراءِ: لَقيطِ بنِ يَعْمُرَ، أعْشى باهِلةَ، قَعْنَبٍ، حاتِمٍ الطَّائيِّ، بَشامةَ بنِ الغَديرِ، النَّمِرِ بنِ تَوْلبٍ، الشَّنْفَرى، كَعْبِ بنِ سَعْدٍ الغَنَويِّ، المُتَلمِّسِ، طَرَفةَ.

القِسْمُ الثَّاني :عكَفَ فيه على شِعْرِ زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمى، وعَبيدِ بنِ الأبْرَصِ، وبِشْرِ بنِ أبي خازِمٍ، وفيه

خَمْسةٌ وعِشرونَ قَصيدةً.

القِسْم الثَّالِثُ :جعَلَه حِكْرًا على شِعْرِ الحُطَيْئةِ وأخْبارِه.

6- دَواوينُ الحَماسة:

تُعَدُّ كُتُبُ "الحَماسةِ" جُزْءًا مِن كُتُبِ الاخْتِياراتِ الشِّعْريَّةِ؛ حيثُ عمَدَ أصْحابُها إلى اخْتِيارِ بعضِ المَقْطوعاتِ الصَّغيرةِ في مَعاني الشِّعْرِ المُخْتلِفةِ، دونَ الاعْتِمادِ على القَصائِدِ الكامِلةِ في الغالِبِ، كما أنَّهم أَكْثَروا في الأخْذِ عن الشُّعَراءِ غيْرِ المَشْهورينَ، بل كَثيرٌ مِن تلك المَقْطوعاتِ لشُعَراءَ مَجْهولينَ، والغَرَضُ الأساسيُّ مِن هذه الاخْتِياراتِ كانَ أدَبيًّا وخُلُقيًّا، ولم يُعْنَ أصْحابُها بالرِّوايةِ والسَّنَدِ، فلم يَهْتمُّوا بالتَّعْريفِ بمَصادِرِهم، وتَوْثيقِ ما يَذكُرونَ.

ويَبْدو كذلك أنَّها راعَتْ طَبيعةَ المُخْتاراتِ الأدَبيَّةِ مِن حيثُ البُعْدُ عنِ السَّآمةِ والمَلَلِ؛ ولِهذا اعْتَمدَتْ على المَقْطوعاتِ الصَّغيرةِ دونَ القَصائِدِ الكامِلةِ والمُطَوَّلاتِ، كما اهْتَمَّتْ بالفُكاهةِ، فتَضمَّنَتْ شيئًا مِن المُلَحِ والنَّوادِرِ والهَزَليَّاتِ؛ فهي تَضُمُّ مَعانيَ وأغْراضًا كَثيرةً مُخْتلِفةً غيْرَ الحَماسةِ، وسُمِّيَتْ بالحَماسةِ نِسبةً إلى ديوانِ الحَماسةِ لأبي تَمَّامٍ، وهو أوَّلُ ما سُمِّيَ بذلِك، فجاءَ الأُدَباءُ على إثْرِه.

ومِن دَواوينِ الحَماسةِ:

أ- ديوانُ الحَماسةِ لأبي تَمَّامٍ:

هو أحَدُ المُنْتَخَباتِ الَّتي اخْتارَها أبو تَمَّامٍ حَبيبُ بنُ أَوْسٍ الطَّائيُّ المُتوفَّى سَنةَ (231هـ)، وقد قسَّمَه إلى عشَرةِ أبْوابٍ: الحَماسةُ: وهو أَكْبَرُ الأبْوابِ؛ ولِهذا سُمِّيَ به، المَراثي، الأدَبُ، النَّسيبُ، الهِجاءُ، الأضْيافُ والمَديحُ، الصِّفاتُ، السَّيْرُ والنُّعاسُ، المُلَحُ، مَذمَّةُ النِّساءِ.

وقد تَفاوَتَتْ أبْوابُ الكِتابِ في الحَجْمِ؛ فالبابُ الأوَّلُ جاءَ تَقْريبًا في نِصْفِ الكِتابِ، في حينِ اخْتَلَفَتْ سائِرُ الأبْوابِ في الحَجْمِ وإن كانَتْ مُتَقارِبةً شيئًا ما.

وقد حَوى الدِّيوانُ مَقْطوعاتٍ لشُعَراءَ جاهِليِّينَ وإسلاميِّينَ وعبَّاسيِّينَ، وأَكْثَرُ ما فيه المَقْطوعاتُ الشِّعْريَّةُ، ونَدَرَ أن يأتيَ بقَصيدةٍ كامِلةٍ.

وقد كَثُرَتْ عليه الشُّروحُ، مِنها شَرْحُ المَرْزوقيِّ، وشَرْحُ التَّبْريزيِّ، وشَرْحُ أبي القاسِمِ الفارِسيِّ.

ب- حَماسةُ البُحْتُريِّ:

جمَعَ أبو عُبادةَ الوَليدُ بنُ عُبادةَ البُحْتُريُّ الشَّاعِرُ المُتوفَّى سَنةَ (284هـ) مُخْتاراتٍ كَثيرةً مِن المَقْطوعاتِ الشِّعْريةِ، على غِرارِ أبي تَمَّامٍ، غيْرَ أنَّه أَكْثَرَ مِن الأبْوابِ، فجاءَ الكِتابُ في مِئةٍ وأرْبعةٍ وسَبْعينَ بابًا، قيلَ: إنَّه جمَعَها إجابةً لطَلَبِ الفَتْحِ بنِ خاقانَ وَزيرِ الخَليفةِ العبَّاسيِّ المُتَوكِّلِ، وكَثيرًا ما تَأتي القِطْعةُ مِن بَيْتٍ واحِدٍ، وأَكْثَرُ أبْوابِها مِن نَزَعاتٍ خُلُقيَّةٍ، وقِطَعُها الكَثيرةُ العَدَدِ تَدورُ حَولَ مُخْتلِفِ مَعاني الشِّعْرِ. ولم تَنَلْ حَماسةُ البُحْتُريِّ مِن الذُّيوعِ والاسْتِحسانِ ما نالَتْه حَماسةُ أبي تَمَّامٍ، ولعلَّ هذا كان السَّببَ في أنَّ القُدَماءَ لم يُعْنَوا بشَرْحِها.

7- دَواوينُ الشُّعَراءِ السِّتَّةِ الجاهِليِّين:

وهي مَجْموعةٌ مِن الشِّعْرِ جمَعَها أبو الحَجَّاجِ، يوسُفُ بنُ سُلَيْمانَ بنِ عيسى الشَّنْتَمَريُّ، المَشْهورُ بالأعْلَمِ، المُتوفَّى سَنةَ (476هـ)، وشرَحَها، وهي لامْرِئِ القَيْسِ والنَّابِغةِ وزُهَيْرٍ وطَرَفةَ وعَنْترَةَ وعَلْقَمةَ.

وقد حَوَتْ تلك المَجْموعةُ (136) قَصيدةً لِهؤلاء الشُّعَراءِ.

ثُمَّ جاءَ بعْدَها بِدراسةٍ لأشْهَرِ الشُّعَراءِ الآخَرينَ، معَ ذِكْرِ شيءٍ مِن شِعْرِهم وشَرْحِه، مِثْلُ: عَمْرِو بنِ كُلْثومٍ، والحارِثِ بنِ حِلِّزةَ، وأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ، ولَبيدِ بنِ رَبيعةَ، والأعْشى، وحاتِمٍ الطَّائيِّ.

8- دَواوينُ القَبائِلِ

اهْتمَّ الرُّواةُ والعُلَماءُ بجَمْعِ أخْبارِ القَبائِلِ وأشْعارِ شُعَرائِهم، وما يَتَّصِلُ بذلِك مِن أنْسابٍ وقِصَصٍ وأحاديثَ، فتُجمَعُ آثارُ كلِّ قَبيلةٍ وأشْعارُها على حِدَةٍ، ويُسمَّى ذلك "ديوانًا" أو "كِتابَ أشْعارٍ".

وقد كَثُرَتْ تلك الدَّواوينُ حتَّى عَدَّ ابنُ النَّديمِ في الفِهْرِسْتِ تِسْعةً وعِشرينَ ديوانًا مِن دَواوينِ الشِّعْرِ

الجاهِليّ، جمَعَها كلَّها إلَّا ديوانًا واحِدًا أبو سَعيدٍ السُّكَّريُّ، وجمَعَ ذلِك الدِّيوانَ المُسْتَثْنى خالدُ بنُ كُلْثومٍ الكَلْبيُّ.

كما ذَكَرَ الآمِديُّ في كِتابه "المُؤْتلِف والمُخْتلِف" سِتِّينَ ديوانًا مِن دَواوينِ أشْعارِ القَبائِلِ، لم يُنسَبْ مِنها غيْرُ ديوانِ التَّغْلبيِّينَ لابنِ جُعَيلٍ التَّغْلبيِّ، وديوانِ بَني الرِّبابِ للمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ وحَمَّادٍ. هذا فَضْلًا عمَّا لم يَذْكُراه وطالَتْه أيادي التَّلَفِ والنِّسيانِ.

بَيْدَ أنَّنا لم نَقِفْ على شيءٍ مِن تلك الدَّواوينِ إلَّا شيئًا يَسيرًا مِن ديوانِ الهُذَليِّينَ، بدَليلِ أنَّ الشَّافعيَّ كانَ يَحفَظُ مِن أشْعارِ الهُذَليِّينَ عشَرةَ آلافِ بَيْتٍ، وليس في المَوْجودِ مِن الدِّيوانِ ثُلُثُ هذا العَدَدِ.

ورَغْمَ هذا كلِّه فقدْ قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (والشُّعَراءُ المَعْروفونَ بالشِّعْرِ عنْدَ عَشائِرِهم وقَبائِلِهم في الجاهِليَّةِ والإسلامِ أَكْثَرُ مِن أن يُحيطَ بهم مُحيطٌ، أو يَقِفَ مِن وَراءِ عَدَدِهم واقِفٌ، ولو أنْفَدَ عُمُرَه في التَّنْقيرِ عنهم، واسْتَفْرغَ مَجْهودَه في البَحْثِ والسُّؤالِ، ولا أحسَبُ أحَدًا مِن عُلَمائِنا اسْتَغْرقَ شِعْرَ قَبيلةٍ حتَّى لم يَفُتْه مِن تلك القَبيلةِ شاعِرٌ إلَّا عرَفَه، ولا قَصيدةٌ إلَّا رَواها).

هذا فَضْلًا عنِ المَصادِرِ الَّتي لم تَعمِدْ إلى الحَديثِ عن الشِّعْرِ الجاهِليِّ، وإنَّما جاءَ ذلك عَرَضًا فيها، مِثْلُ كُتُبِ التَّاريخِ والبَلاغةِ، والتَّراجِمِ والطَّبَقاتِ واللُّغةِ، وقد سبَقَ الحَديثُ عنها في بَيانِ مَصادِرِ الأدَبِ.

وأيضًا مِن الكُتُبِ الجيِّدةِ الَّتي تَشتمِلُ على شِعْرٍ جاهِليٍّ:

كُتُب التاريخ الَّتي جمعت ما قيلَ في أيَّامِ العَربِ، مثل: الكامل في التاريخ لِعز الدين ابن الأثير.

وكُتُبِ النَّقْدِ، مِثْلُ: نَقْدِ الشِّعْرِ لِقُدامةَ، والوَساطةِ بيْنَ المُتَنبِّي وخُصومِه للقاضي عليِّ بنِ عبْدِ العَزيزِ الجُرجانيِّ.

وتوجد كُتُبٌ مُتأخِّرةٌ احْتَفظَتْ ببعضِ ما فُقِدَ مِن الرِّواياتِ القَديمةِ؛ مِنها: "خِزانةُ الأدَبِ" لعبْدِ القادِرِ البَغْداديِّ، وفيه تَراجِمُ دَقيقةٌ لشُعَراءِ العَصْرِ الجاهِليِّ، وتَعْليقاتٌ على شِعْرِهم معَ الإشارةِ إلى

مَصادِره التُّراثيَّةِ فِي كُتُبِ الَّذين سبَقوه مِن العُلَماءِ والرُّواةِ، وقد قامَ على تَحقيقِ هذا الكِتابِ ونَشْرِه بصورةٍ عِلميَّةٍ دَقيقةٍ العالِمُ المُحقِّقُ الشَّيخُ عبْدُ السَّلامِ هارون عليه رَحمةُ اللهِ، وصنَعَ فَهارِسَه بطَريقةٍ تُمكِّنُ الدَّارِسينَ والباحِثينَ مِن الرُّجوعِ إليه عنْدَ الحاجةِ.

الفصل التاسع عشر: نَشْأةُ الشِّعْرِ

الشِّعْرُ قَديمٌ في فِطْرةِ العَربِ، ما كانَ العَربيُّ في مَبدَأِ عَهْدِه يَنظِمُ الشِّعْرَ، ولا يَعرِفُ ما قَوافيه وأعاريضُه، ولكنَّه سمِعَ أصْواتَ النَّواعيرِ، وحَفيفَ أوْراقِ الأشْجارِ، وخَريرَ الماءِ، وبُكاءَ الحَمائِمِ؛ فلَذَّ له صَوْتُ تلك الطَّبيعةِ المُترَنِّمةِ، ولَذَّ له أن يبكيَ لبُكائِها، وأن يكونَ صَداها الحاكيَ لنَغَماتِها، فإذا هو يَنظِمُ الشِّعْرَ مِن حيثُ لا يَفهَمُ مِنه أنَّه خَيالُ قَريحتِه، ولا يُدرِكُ مِن أوْزانِه وضُروبِه إلَّا أنَّها صورةٌ مِن حَرَكاتِ ناقتِه.

قالَ ابنُ رَشيقٍ: "وكانَ الكَلامُ كلُّه مَنْثورًا فاحْتاجَتِ العَربُ إلى الغِناءِ بمَكارِمِ أخْلاقِها، وطِيبِ أعْراقِها، وذِكْرِ أيَّامِها الصَّالِحةِ، وأوْطانِها النَّازِحةِ، وفُرْسانِها الأمْجادِ، وسُمَحائِها الأجْوادِ؛ لتَهُزَّ أنْفُسَها إلى الكَرَمِ، وتَدُلَّ أبْناءَها على حُسْنِ الشِّيَمِ، فتَوهَّموا أعاريضَ جعَلوها مَوازينَ الكَلامِ، فلمَّا تَمَّ لهم وَزْنُه سمَّوه شِعْرًا؛ لأنَّهم شعَروا به، أي: فَطِنوا".

فإنَّ أوْزانَ الشِّعْرِ مرَّتْ في شِعْرِ العَربِ على أدْوارٍ، فكانَ حُدَاءُ الإبلِ أوَّلَ باعِثٍ لهم على قَرْضِ الشِّعْرِ، فكانوا يَحْدُونَها بكَلامٍ وأصْواتٍ تُشبِهُ التَّواقيعَ.

وكانَ أوَّلُ مَن قالَ الرَّجَزَ مُضَرَ بنَ نِزارٍ؛ فإنَّه سقَطَ عن جَمَلٍ فانْكَسرَتْ يَدُه، فحَمَلوه وهو يقولُ: وا يَداه! وا يَداه!

وكانَ أحْسَنَ خَلْقِ اللهِ جِرْمًا وصَوْتًا، فأصْغَتِ الإبلُ إليه وجَدَّتْ في السَّيْرِ، فجعَلَتِ العَربُ مِثالًا لقولِه: "هايَدا هايَدا" يَحْدونَ به الإبِلَ.

وزعَمَ ناسٌ مِن مُضَرَ أنَّ أوَّلَ مَن حَدا رَجُلٌ مِنهم، كانَ في إبِلِه أيَّامَ الرَّبيعِ، فأمَرَ غُلامًا له ببعضِ أمْرٍ، فاسْتَبْطأَه، فضَرَبَه بالعَصا، فجَعَلَ يُنشِدُ في الإبلِ ويقولُ: يا يَداه، يا يَداه، فقالَ الرَّجُلُ

لغُلامِه: الْزَمْ الْزَمْ، واسْتَفْتَحَ النَّاسُ الحُداءَ مِن ذلك الوَقْتِ.

ويُذكَرُ أنَّ أوَّلَ مَن أطالَ الرَّجَزَ الأغْلَبُ العِجْليُّ، وهو شاعِرٌ قَديمٌ، وله:

أَرَجَزًا تُريدُ أَمْ قَصيدا   لقد سألْتَ هَيِّنًا مَوْجودَا

ومِن ثَمَّ طالَتِ الأبْياتُ إلى ما يُسمَّى بالقِطعةِ الَّتي تُعبِّرُ عن أحاسيسِهم الفَنِّيَّةِ، ووصَفوا بها الحُروبَ والخَيلَ والإبِلَ والصَّحْراءَ، وغيْرَ ذلِك مِن مَظاهِرِ حَياتِهم، واسْتَحْدَثوا أوْزانًا أخرى غيْرَ الرَّجَزِ؛ كالطَّويلِ والكامِلِ والوافِرِ، وزادَتِ الأبْياتُ في العَدَدِ، وقُصِّدَتِ القَصائِدُ حتَّى وصَلَتْ بعْدَ ذلِك إلى الصُّورةِ المَعْروفةِ ذاتِ الأبْياتِ الكَثيرةِ، واسْتَحدَثَ العَربُ أوْزانًا أخرى حتَّى وصَلَ عَدَدُ الأوْزانِ والبُحورِ إلى سِتَّةَ عشَرَ وَزْنًا، كما أخْبَرَ بذلِك الخَليلُ بنُ أحْمَدَ، إلَّا أنَّ هذه الأوْزانَ وتلك البُحورَ تَفاوَتَتْ في الاسْتِعمالِ عنْدَ العَربِ؛ فمِنها ما هو كَثيرُ الاسْتِعمالِ حتَّى غلَبَ على مُعظَمِ أشْعارِهم كالطَّويلِ، ومِنه ما هو نادِرٌ قَليلٌ كالمُتدارَكِ.

وقد اخْتَلفَ العُلَماءُ في أوَّلِ مَن أطالَ الشِّعْرَ وقصَّدَ القَصائِدَ، معَ إجْماعِهم أنَّ للشِّعْرِ أوَّلًا لا يُوقَفُ عليه، ولا يُعلَمُ أوَّلُ مَن قالَه، وإنَّما اخْتَلفوا فيمَن نظَمَ الشِّعْرَ وبلَغَ بأبياتِه عَدَدًا بعْدَ أن كانَ مَقْصورًا على البَيْتَينِ والثَّلاثةِ، وادَّعَتْ كلُّ قَبيلةٍ ذلِك لشُعَرائِها؛ فادَّعَتِ اليَمانيَةُ أنَّه امْرُؤُ القَيْسِ، وبَنو أسَدٍ أنَّه عَبيدُ بنُ الأبْرَصِ، وتَغْلِبُ للمُهَلْهِلِ بنِ رَبيعةَ، وبَكْرٌ لعَمْرِو بنِ قَميئةَ والمُرقِّشِ الأكْبَرِ، وإيادٌ لأبي دُؤادٍ.

وكلُّ هؤلاء المَذْكورينَ مُتَقارِبونَ في المُدَّةِ، ليس بيْنَ أقْدَمِهم وبيْنَ الإسْلامِ مِئةُ سَنةٍ.

إلَّا أنَّ أوَّلَ مَن تُروى عنه قَصيدةٌ تَبلُغُ ثَلاثينَ بَيْتًا مِن الشِّعْرِ هو المُهَلْهِلُ عَديُّ بنُ رَبيعةَ، خالُ امْرِئِ القَيْسِ، كما ذَكَرَ ذلِك الأصْمَعيُّ.

ولعلَّ أوَّلَ ما وصَلَنا مِن شِعْرِه الَّذي زادَ فيه على ثَلاثينَ بَيْتًا هو قَصيدتُه المَشْهورةُ الَّتي بَكى فيها

أخاه كُلَيْبًا، وكانَ كُلَيْبٌ قد قتَلَه جسَّاسُ بنُ مُرَّةَ في الحَرْبِ بيْنَ بَكْرٍ وتَغْلِبَ، فأنْشَأَ فيه المُهَلْهِلُ قَصائِدَه، مِنها تلك الَّتي أوَّلُها:

أَهاجَ قَذاءَ عَينيَ الادِّكَارُ هُدُوًّا فَالدُّموعُ لَها انْحِدارُ

وكانَ المُهَلْهِلُ عاكِفًا على الخَمْرِ واللَّهْوِ والتَّشْبيبِ بالنِّساءِ، حتَّى سمَّاه أخوه كُلَيْبٌ "زِيرِ النِّساءِ"، أي: جَليسِهنَّ، فلمَّا قُتِلَ أخوه انْصَرفَ عنِ اللَّهْوِ والشَّرابِ، وأقْسَمَ على الثَّأرِ لأخيه، وأنْشَدَ فيه الأشْعارَ الَّتي أجَّجَتْ نارَ الحَرْبِ الَّتي اسْتَمرَتْ أرْبَعينَ سَنةً بيْنَ بَكْرٍ وتَغْلِبَ. ثُمَّ جاءَ امْرُؤُ القَيْسِ بعْدَ المُهَلْهِلِ فافْتَنَّ به، واسْتَحدَثَ مَعانيَ جَديدةً، وأطالَ القَصائِدَ، وأحْكَمَ نَسْجَها حتَّى اسْتَوتْ على سوقِها وبلَغتْ أشُدَّها.

وبذلِك اكْتَملَتْ مَراحِلُ نُمُوِّ الشِّعْرِ، فبدَأَ بالأراجيزِ والمَقْطوعاتِ حتَّى بلَغَ أشُدَّه، وتَعدَّدَتْ أوْزانُه وتَنوَّعَتْ أغْراضُه، ووصَلَ إلى مَرْحلةِ الكَمالِ والنُّضوجِ الَّتي نَراها عنْدَ امْرِئِ القَيْسِ وطَبَقتِه مِن الشُّعَراءِ، فتَعدَّدَتْ صُوَرُ الشِّعْرِ لدى الشُّعَراءِ، وطالَتْ أبْياتُه واخْتَلفَتْ أوْزانُه؛ فجاءَ الطَّويلُ والبَسيطُ، والكامِلُ والوافِرُ، والسَّريعُ والمَديدُ، والمُنْسرِحُ والخَفيفُ، والوافِرُ والمُتقارِبُ، والهَزَجُ والمُتَدارَكُ. وإن كانَ نَظْمُهم في الثَّلاثةِ الأُولى أكْثَرَ وأوْسَعَ.

وليس بيْنَ أيْدينا شيءٌ يَدُلُّ على طُفولةِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ وحِقَبِه الأُولى، وكيف تَمَّ له تَطوُّرُه حتَّى انْتَهى إلى هذه الصُّورةِ النَّموذجيَّةِ الَّتي تَلقَّيناها مُنْذُ أوائِلِ العَصْرِ الجاهِليِّ.

الفصل العشرون: شياطين الشعراء

تَزعُمُ العَربُ أنَّ معَ كلِّ شاعِرٍ فَحْلٍ شَيْطانًا يقولُ على لِسانِه، وكأنَّ في شِعْرِهم أحْرُفًا ناريَّةً، تُلقي بها الجِنُّ على ألْسِنتِهم، وأنَّهم إنَّما يَتَناوَلون مِن الغَيْبِ، فهُمْ فوقَ أن يُعَدُّوا مِن النَّاسِ ودونَ أن يُحْسَبوا مِنَ الجِنِّ.

وانْتَشرَتْ هذه الخُرافةُ فيما بيْنَهم، وكانَ بعضُ شُعَرائِهم يَفخَرُ بذلِك، قال أبو النَّجْمِ:

إنِّي وكُلَّ شاعِرٍ مِن البَشَـــــرْ   شَيْطانُه أُنْثى وشَيْطاني ذَكَرْ

وسمَّى العَربُ هذه الشَّياطينَ بأسْماءٍ؛ فزعَموا أنَّ للمُخبَّلِ كَعْبِ بنِ عبْدِ اللهِ القَيْسيِّ شَيْطانًا يُملي عليه الشِّعْرَ اسمُه عُمَرُ، ولامْرِئِ القَيْسِ شَيْطانًا اسمُه لافِظُ بنُ لاحِظٍ، وهَبيدٌ صاحِبُ عَبيدِ بنِ الأبْرَصِ وبِشْرِ بنِ أبي خازِمٍ، وكانوا يقولون: لولا هَبيدٌ ما كانَ عَبيدٌ، وهاذِرُ بنُ ماهِرٍ صاحِبُ النَّابِغةِ الذُّبْيانيِّ، وجُهُنَّامٌ صاحِبُ عَمْرِو بنِ قَطَنٍ، ومُدرِكُ بنُ واغِمٍ صاحِبُ الكُمَيْتِ؛ وأنَّ الأعْشى معَه شَيْطانٌ اسمُه مِسْحَلٌ.

والَّذي حمَلَ الشُّعَراءَ على القولِ بذلِك هو تَوْكيدُ الثِّقةِ والاعْتِدادُ بأنْفُسِهم، وإلى الذَّهابِ بالنَّفْسِ ونُفْرةِ الأنَفِ؛ فإنَّ عُمومَ النَّاسِ إذا علِموا بذلِك أكْبَروهم، وانْقادوا لشِعْرِهم، وعجَزوا عن مُجاراتِهم أو الاسْتِخفافِ بشِعْرِهم.

وقد أخَذوا تلك الفِكرةَ مِن الكُهَّانِ؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمونَ أنَّ لكلِّ كاهِنٍ جِنِّيًّا يُسمَّى الرَّئِيَّ والتَّابِعَ، فاتَّبَعَهم الشُّعَراءُ في ذلك.

ورُبَّما حمَلَتْ طَبيعةُ الشِّعْرِ الشُّعَراءَ على أنَّ يُصدِّقوا ذلِك؛ فإنَّ الشَّاعِرَ غَداةَ يَرهُفُ حِسُّه وتَأتيه مادَّةُ الشِّعرِ، يَشعُرُ أنَّ تَفاعُلًا رُوحيًّا بيْنَ نفْسِه ونفْسٍ أخرى حادِثٌ، يَشعُرُ به في هذا الوَقْتِ فحسْبُ؛ ولِهذا رُبَّما ظَنَّ أنَّ قُوَّةً خَفيَّةً تُملي عليهم الشِّعْرَ، وأنَّه ليس بمَقْدورِ البَشَرِ أن يَأتوا بمِثلِ

هذا النَّوْعِ مِن البَيانِ الرَّفيعِ.

ولانْتِشارِ الخُرافاتِ في البيئةِ العَربيَّةِ الَّتي لا يَضبِطُها ضابِطٌ دينيٌّ ظنَّ النَّاسُ هذا الظَّنَّ عنْدَما سمِعوا فُحولَ الشُّعَراءِ تَهدِرُ شَقاشِقُهم بأبْلَغِ البَيانِ وتَرمي أفْواهُهم بشَرَرِ السِّحْرِ الحَلالِ، ظنُّوا أنَّ وَراءَ هذا الشِّعْرِ قوَّةً خَفيَّةً تُؤجِّجُ نارَ البَيانِ في أفْواهِ الشُّعَراءِ. والدَّليلُ على بُطلانِ هذا الظَّنِّ أنَّ الإسلامَ قد طمَسَ تلك الاعْتِقاداتِ، وتَلاشَتْ عنْدَ ظُهورِه، ولم يُسمَعْ لها صدى صَوْتٍ فيه.

الفصل الحادي والعشرون: بِناءُ القَصيدةِ الجاهِليَّةِ

عرَفَتِ القَصيدةُ الجاهِليَّةُ شَكلًا مُوَحَّدًا لا تَخرُجُ عنه، فكانَ الشَّاعِرُ إذا أرادَ أن يَكتُبَ قَصيدةً في الوَصْفِ أوِ الغَزَلِ أوِ المَدْحِ أوِ الهِجاءِ أو نَحْوِها مِن أغْراضِ الشِّعْرِ ومَوْضوعاتِه- لم يَسلُكْ إلى مَقصَدِه مُباشَرةً دونَ أن يَذكُرَ المُقدِّمةَ التَّقْليديَّةَ الَّتي شاعَتْ في جُلِّ القَصائِدِ الجاهِليَّةِ إن لم تكنْ كلَّها، فلا بدَّ للشَّاعِرِ أن يَقِفَ على الأطْلالِ وآثارِ بَيْتِ مَحْبوبتِه الَّتي رحَلَتْ عنه وتَرَكتْه قَفْرًا لا رُوحَ فيه ولا حَياةَ، فيَقِفُ الشَّاعِرُ على تلك الأطْلالِ باكيًا مُهَيِّجًا السَّامِعينَ على البُكاءِ، ويَسْتدعي ذلك الحَديثَ عن حَبيبتِه ووَصْفِها وجَمالِها وذِكْرَياتِهما معًا، وأنَّه لا يَسْتطيعُ نِسْيانَها رَغْمَ مُحاوَلاتِه الكَثيرةِ، ثُمَّ يُتبِعُ ذلك بوَصْفِ رِحْلتِه في الصَّحراءِ وتَحمُّلِه العَطَشَ والحَرَّ الشَّديدَ، ويَلزَمُ منه وَصْفُ ناقتِها وسُرعتِها، وصِفةِ مَشيِها وجَرْيِها، وضُمورِ بَطْنِها، ونَحْوِ ذلِك، إلى أن يَصِلَ إلى مَوْضوعِه الَّذي أرادَه، فيَعدِلَ إليه في حُسْنِ تَخلُّصٍ وانْسيابٍ لا يَشعُرُ به السَّامِعُ أنَّه انْتَقلَ مِن المُقدِّمةِ إلى المَوْضوعِ.

والمُعلَّقاتُ المَشْهورةُ شاهِدةٌ بذلِك؛ ففي كلِّها تلك المُقدِّمةُ الطَّلَلِيَّةُ، معَ اخْتِلافِ النَّزْعةِ والمَأخَذِ وطَريقةِ العَرْضِ؛ ففي مُعلَّقةِ امْرِئِ القَيْسِ أطْلالٌ لِديارٍ عفَتْ وسَكَنَتْها الآرامُ، وظَعائِنُ تَسيرُ، والشَّاعِرُ يَقِفُ باكيًا حَزينًا، وفي مُعلَّقةِ طَرَفةَ أطْلالٌ تَكادُ آثارُها لا تُرى، والشَّاعِرُ واقِفٌ بها في أسًى ولَوعةٍ، والظَّعائِنُ[12] تَسيرُ في مَوْكِبٍ ضَخْمٍ عَظيمٍ تَشُقُّ الوديانَ في سُرعةٍ ونَشاطٍ، وعنْدَ زُهَيْرٍ أطْلالٌ أصْبَحَتْ مَواطِنَ أمْنٍ واسْتِقرارٍ للبَقَرِ والظِّباءِ وأوْلادِها، فيُحيِّيها ويَدْعو لها بالخَيْرِ، وظَعائِنُ مُتْرَفاتٌ مُنعَّماتٌ يَصِلْنَ إلى مَكانٍ أمينٍ مُريحٍ، وعنْدَ لَبيدٍ ديارٌ تَخرَّبَتْ وأصْبَحَتْ مَرعًى لقُطعانِ الماشيةِ، فلا أمَلَ له

---

12 الظعائن: جمع ظعينة، وتُجمَعُ أيضًا على ظُعن – بضم العين وسكونها – وأَظعَان، وهو: الهَودَجُ تَكُونُ فيه المرأةُ المُرتَحِلَة، ويُطلَقُ كذلك على المرأة في هَودَجِها، وكذلك البعيرُ الذي يُظعَنُ عليه. والظَّعنُ هو: سَيْرُ الْبَادِيَةِ لنُجْعَةٍ أَو حُضُورِ ماءٍ أَو طَلَبِ مَرْبَعٍ أَو تَحَوُّلٍ مِنْ مَاءٍ إِلى مَاءٍ أَو مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ؛ وَقَدْ يُقَالُ لِكُلِّ شَاخِصٍ لِسَفَرٍ فِي حَجٍّ أَو غَزْوٍ أَو مَسير مِنْ مَدِينَةٍ إِلى أُخرى ظاعِنٌ، وَهُوَ ضِدُّ الخافِضِ.

مِنها يُرْتَجى، وظَعائِنُ فارَقْنَ وقَطَعْنَ الصِّلةَ، أمَّا عَنْتَرةُ فديارُ حَبيبتِه لها واجِبُ التَّحيَّةِ والوَفاءِ، والحَبيبةُ وإن بَعُدَتْ فلها كلُّ مَحبَّةٍ وإكرامٍ، وظَعينةُ عَمْرِو بنِ كُلْثومٍ يَسألُها عن حَقيقةِ شُعورِها نَحْوَه: قَطيعةٌ أم خِيانةٌ للعَهْدِ؟ أمَّا الحارِثُ بنُ حِلِّزةَ فقدْ أعْلَمَتْه الحَبيبةُ بالرَّحيلِ، وقد خلَتِ الدِّيارُ مِنها، فلا جَدوى مِن البُكاءِ عنْدَها، وذلِك يُوضِّحُ أنَّ الشَّاعِرَ وإنِ اتَّفَقَ معَ غيْرِه في الفِكرةِ فإنَّ جانِبَ الانْفِعالِ لديه كانَ يَخْتلِفُ.

وكانَ أيضًا مِن بيْنِ الافْتِتاحيَّاتِ الحَديثُ عنِ الصِّبا والشَّبابِ والشَّيْبِ والخَمْرِ والطَّيْفِ، يَصِفونَ رِحْلاتِهم في الصَّحراءِ وما يَرْكَبونَه مِن إبِلٍ وخَيْلٍ، وكَثيرًا ما يُشبِّهونَ النَّاقةَ في سُرْعتِها ببعضِ الحَيواناتِ الوَحْشيَّةِ، ويَمْضونَ في تَصْويرِها، ثُمَّ الحَديثُ عن ذِكرياتِ الحَبيبةِ وجَمالِها، ومُحاوَلةِ التَّسلِّي عنها، ثُمَّ يُحاوِلُ الشَّاعِرُ أن يَنفُذَ إلى غَرَضِه الَّذي إليه يَرمي، فإن كانَتِ المُقدِّمةُ تُشبِهُ المَوْضوعَ الرَّئيسَ، وكان بيْنَهما صِلةٌ عَقْليَّةٌ أو تَسَلْسُلٌ مَنْطِقيٌّ، انْتَقَلَ الشَّاعِرُ مِنَ المُقدِّمةِ إلى المَوْضوعِ دونَ أن يُشعِرَ السَّامِعَ بِهذا الانْتِقالِ، وهذا يَرجِعُ إلى بَراعةِ الشَّاعِرِ وتَمكُّنِه مِن أدَواتِ الصِّياغةِ، وهذا ما يُسمَّى بحُسْنِ التَّخلُّصِ، أمَّا إذا كانَتْ هناك مُفارَقةٌ بيْنَ المُقدِّمةِ والمَوْضوعِ، ولم يَسْتطِعِ الشَّاعِرُ أن يَنفُذَ إلى مَوْضوعِه بلُطْفِ الحيلةِ وحُسْنِ التَّخلُّصِ؛ فإنَّه يَبدَأُ مَوْضوعَه بقَولِه: "دَعْ ذا" أو "عَدِّ عن ذا"، أو يَبدَأُ مَوْضوعَه ب(إنَّ) المُشدَّدةِ الَّتي لا تَقَعُ إلَّا في ابْتِداءِ الكَلامِ؛ كي يُعلِمَ السَّامِعَ أنَّه بدَأَ مَوْضوعَه، وهذا يُسمَّى طَفرًا وانْقِطاعًا.

وقد فسَّرَ ابنُ قُتَيْبةَ السَّببَ الَّذي حرَصَ لأجْلِه الشُّعَراءُ الجاهِليُّونَ على تلك المُقدِّمةِ الطَّلَليَّةِ فقالَ: (سمِعْتُ بعضَ أهْلِ الأدَبِ يَذكُرُ أنَّ مُقَصِّدَ القَصيدِ إنَّما ابْتَدأَ فيها بذِكْرِ الدِّيارِ والدِّمَنِ والآثارِ، فبَكى وشَكا، وخاطَبَ الرَّبْعَ، واسْتَوقَفَ الرَّفيقَ؛ ليَجعَلَ ذلك سَببًا لذِكْرِ أهْلِها الظَّاعِنينَ عنها، إذ كانَت نازِلةَ

العَمَدِ[13] في الحُلولِ والظَّعْنِ، على خِلافِ ما عليه نازِلةُ المَدَرِ[14]؛ لانْتِقالِهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانْتِجاعِهم الكَلأَ، وتَتبُّعِهم مَساقِطَ الغَيْثِ حيثُ كانَ، ثُمَّ وصَلَ ذلك بالنَّسيبِ، فشَكا شِدَّةَ الوَجْدِ وألَمَ الفِراقِ، وفَرْطَ الصَّبابةِ والشَّوقِ، ليُميلَ نَحْوَه القُلوبَ، ويَصرِفَ إليه الوُجوهَ، وليَسْتدعيَ به إصْغاءَ الأسْماعِ إليه؛ لأنَّ التَّشْبيبَ قَريبٌ مِن النُّفوسِ، لائِطٌ بالقُلوبِ[15]؛ لِما قد جعَلَ اللهُ في تَرْكيبِ العِبادِ مِن مَحبَّةِ الغَزَلِ وإلْفِ النِّساءِ، فليس يَكادُ أحَدٌ يَخْلو مِن أن يكونَ مُتعلِّقًا مِنه بسَبَبٍ، وضارِبًا فيه بسَهْمٍ، حَلالٍ أو حَرامٍ، فإذا علِمَ أنَّه قدِ اسْتَوثَقَ مِن الإصْغاءِ إليه، والاسْتِماعِ له، عقَّبَ بإيجابِ الحُقوقِ، فرَحَلَ في شِعْرِه، وشَكا النَّصَبَ والسَّهَرَ، وسُرى اللَّيلِ وحَرَّ الهَجيرِ[16]، وإنْضاءَ الرَّاحِلةِ والبَعيرِ[17]، فإذا علِمَ أنَّه قد أوْجَبَ على صاحِبِه حَقَّ الرَّجاءِ وذِمامةَ التَّأميلِ، وقرَّرَ عنْدَه ما نالَه مِن المَكارِهِ في المَسيرِ، بدَأَ في المَديحِ، فبعَثَه على المُكافأةِ، وهزَّه للسَّماحِ، وفضَّلَه على الأشْباهِ، وصَغَّرَ في قَدْرِه الجَزيلَ).

فهذا هو التَّرْكيبُ الفنِّيُّ للقَصيدةِ الجاهِليَّةِ، وندَرَ أن يَشِذَّ أحَدٌ مِنهم عن هذه العادةِ المَألوفةِ في شِعْرِهم، وللقَصيدةِ مَهْما طالَتْ تَقْليدٌ ثابِتٌ في أوْزانِها وقَوافيها وطَريقةِ نَسْجِها، فهي تَتأَلَّفُ مِن وَحَداتٍ مُوسيقيَّةٍ يُسمُّونها الأبْياتَ، وتَتَّحِدُ جَميعُ الأبْياتِ في وَزْنِها وقافيتِها، وما تَنْتهي به مِن رَوِيٍّ.

---

13 نازلة العمد: هم أصحاب الأبنية الرفيعة الذين يتنقلون بأبنيتهم، ونحو ذلك فسر الفراء قوله تعالى: (إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ) أنهم كانوا أهل عمد يتنقلون إلى الكلأ حيث كان ثم يرجعون إلى منازلهم. (الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر)

14 المدر: الحَضَرُ.

15 اللائط بالشيء: اللاصق به.

16 حر الهجير: حَرُّ مُنتَصَفِ النَّهَارِ، وَشِدَّةِ قَيظِهِ.

17 إنضاء الدابة ونحوها: إجهادها وإهزالها.

الفَصلُ الثاني والعشرون: وَحْدةُ القَصيدةِ الجاهِليَّةِ

يُشترَطُ في القَصيدةِ أن تَتحقَّقَ فيها الوَحْدةُ العُضْويَّةُ، وذلك أن تأتيَ القَصيدةُ مُحْكَمةَ البِناءِ، مُتكامِلةَ الأجْزاءِ، ذاتَ تَسَلْسُلٍ مَنْطقيٍّ، مُترابِطةَ الجُمَلِ والأبْياتِ بحيثُ لا يَسْتطيعُ أحَدٌ أن يُقدِّمَ بَيْتًا على بَيْتٍ، أو يُؤخِّرَ مَقْطوعةً عن مَقْطوعةٍ، حتَّى قالوا: إنَّ القَصيدةَ مِثْلُ الكائِنِ الحَيِّ، له أعْضاءٌ ثابِتةٌ في مَواضِعِها، فإذا قدَّمْنا عُضْوًا على عُضْوٍ فسَدَ البِناءُ والتَّرْكيبُ الإنْسانيُّ، وخالَفَ الفِطرةَ الَّتي هو عليها، فكذلك القَصيدةُ إذا لحِقَها التَّقْديمُ والتَّأخيرُ فهذا يُعَدُّ عَيْبًا فيها.

قالَ الحاتِميُّ: (مَثَلُ القَصيدةِ مَثَلُ الإنْسانِ في اتِّصالِ بعضِ أعْضائِه ببَعضٍ؛ فمتى انْفَصلَ واحِدٌ عنِ الآخَرِ وبايَنَه في صِحَّةِ التَّركيبِ، غادَرَ الجِسْمَ ذا عاهةٍ تَتَخوَّنُ مَحاسِنَه، وتُعَفِّي مَعالِمَه).

وقدِ اتَّهمَ بعضُ الأُدَباءِ والقُرَّاءِ القَصيدةَ الجاهِليَّةَ القَديمةَ بأنَّها مُتفكِّكةُ الأجْزاءِ، غايةُ ما فيها وَحْدةُ البَيْتِ فحَسْبُ؛ فالبَيْتُ أوِ البَيْتانِ يَترابَطانِ فيما بيْنَهما وتَجمَعُهما فِكرةٌ واحِدةٌ وغَرَضٌ واحِدٌ، أمَّا بِناءُ القَصيدةِ ككُلٍّ فهي مُترامِيةُ الأجْزاءِ، يَسْتطيعُ المَرْءُ أن يُقدِّمَ بعضَ الأبْياتِ على بعضٍ مِن غيْرِ أن يُؤثِّرَ ذلِك في بِناءِ القَصيدةِ ومَفْهومِها.

وهذا ادِّعاءٌ يُنافي الحَقيقةَ؛ فكلُّ بَيْتٍ مِن أبْياتِ القَصيدةِ الجاهِليَّةِ مُتَماسِكٌ معَ ما قبْلَه، مُحكَمُ النَّسْجِ معَ ما بعْدَه، فإن حدَثَ تَغيُّرٌ في النَّظْمِ والتَّرْتيبِ أخَلَّ ذلِك بالمَعنى الَّذي يُريدُ الشَّاعِرُ أن يُوصِلَه إلى السَّامِعِ، ولا تأتي القَصيدةُ مُفرَّقةً خالِيةً مِن الوَحْدةِ إلَّا إذا كانَ الشَّاعِرُ ضَعيفَ المَلَكةِ، والشُّعَراءُ كانوا يَهْجونَ بعضَهم بعَدَمِ تَوافُرِ الوَحْدةِ في القَصيدةِ، وقد قالَ عُمَرُ بنُ لَجَإٍ لبعضِ الشُّعَراءِ: أنا أشْعَرُ مِنك، قيلَ: وبِمَ ذلِك؟ فقالَ: لأنِّي أقولُ البَيْتَ وأخاه، وأنتَ تَقولُ البَيْتَ وابنَ عَمِّه.

والَّذي دفَعَ أصْحابَ هذا القولِ إلى اتِّهامِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ بتلك الفِريةِ إنَّما هو أحَدُ أمْرَينِ لا

ثالِثَ لهما؛ **الأوَّلُ:** الإغْرابُ والتَّنقُّصُ مِن مآثِرِ السَّابِقينَ والحَطُّ مِن قَدْرِهم، **والثَّاني:** عَدَمُ القِراءةِ المُتمحِّصةِ للشِّعْرِ الجاهِليِّ، خاصَّةً معَ وُرودِ بعضِ القَصائِدِ ناقِصةً في بعضِ الرِّواياتِ، يَسْتدعي تَمامُ النَّظَرِ سَبْرَ تلك القَصيدةِ واسْتِكمالَها مِن الرِّواياتِ الأخرى.

ولِهذا يقولُ الأسْتاذُ مَحْمود شاكِر: (وعِلَّةُ تَفشِّي هذه المَقالةِ الخَبيثةِ في اتِّهامِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ عامَّةً بالتَّفكُّكِ والاخْتِلالِ هي عِلَّةُ العَصْرِ الَّذي صار أبْناؤُه يَتلمَّسونَ المَعابةَ لأسْلافِهم وآبائِهم، في خَبَرٍ مَطْروحٍ أو كَلِمةٍ شارِدةٍ أو ظاهِرةٍ مَحْدودةٍ، فيَبْنونَ عليها تَعْميمًا في الحُكْمِ، يُتيحُ لأحَدِهم أن يَشْفيَ ما في النَّفْسِ مِن حُبِّ القَدْحِ والتَّردِّي في طَلَبِ المَذمَّةِ، أو أن يَتقلَّدَ شِعارَ التَّجْديدِ أوِ الإغْرابِ؛ طَلَبًا للذِّكْرِ وحُبًّا للصِّيتِ.

وكَثيرٌ مِن القَصائِدِ الَّتي وقَفْتُ عليها مُختلَّةَ البِناءِ في رِوايةٍ مِن رِواياتِ العُلَماءِ القُدَماءِ الثِّقاتِ، أمْكنَني بالتَّقصِّي والتَّفْتيشِ أنَّ أجْمَعَ لها رِواياتٍ أخرى مُخْتلِفةً في المَخْطوطِ والمَطْبوعِ مِن الكُتُبِ والدَّواوينِ، فصَحَّحَ بعضُ هذه النُّصوصِ بعضًا، حتَّى وجَدْتُها قدِ اسْتَقامَتْ على نَهْجٍ واضِحٍ يَنْفي عنها افْتِقارَها إلى صِحَّةِ البِناءِ، أو إلى ما يُسمُّونَه "الوَحْدةَ"، ولكنْ للتَّقصِّي والتَّفْتيشِ شُروطٌ يُغفِلُها كَثيرٌ مِن الدَّارِسينَ).

على أنَّ العَربَ الجاهِليِّينَ قد صَبُّوا اهْتِمامَهم على ما يُسَمَّى وَحْدةَ البَيْتِ، وهو أن يكونَ كلُّ بَيْتٍ يَتَضمَّنُ مَعنًى في نفْسِه، لا يَفْتقِرُ في بَيانِه عمَّا قبْلَه أو ما بعْدَه، ولا يَعني هذا تَفكُّكَ القَصيدةِ وافْتِقارَها إلى الوَحْدةِ العُضويَّةِ، بلْ إنَّ ذلِك مِثلُ الكَلِمةِ المُفرَدةِ الَّتي تُؤدِّي مَعنًى مُعْجَميًّا مَفْهومًا بذاتِه، لكنْ لا يَتَّضِحُ ذلِك كَمالَ الاتِّضاحِ إلَّا إذا جاءَتْ في مَوقِعِها في جُمْلتِها. وهذا النَّوْعُ مِن الوَحْدةِ هو ما قالَ فيه ابنُ رَشيقٍ: (ومِنَ النَّاسِ مَن يَسْتحسِنُ الشِّعْرَ مَبْنيًّا بعضُه على بعضٍ، وأنا أسْتَحسِنُ أن يكونَ كلُّ بَيْتٍ قائِمًا بنفْسِه، لا يَحْتاجُ إلى ما قبْلَه ولا إلى ما بعْدَه، وما سِوى ذلِك فهو عنْدي تَقْصيرٌ).

أمَّا عن الوَحْدةِ المَوْضوعيَّةِ فإنَّ فَريقًا مِن النُّقادِ هاجَموا القَصيدةَ العَربيَّةَ الجاهِليَّةَ، وقالوا إنَّها خاليةٌ مِن الوَحْدةِ المَوْضوعيَّةِ.

ومَعنى الوَحْدةِ المَوْضوعيَّةِ: أن تَأتيَ القَصيدةُ في مَوْضوعٍ واحِدٍ لا تَتعدَّاه إلى غيْرِه.

وهُمْ في رَأيِهم هذا مُتأثِّرونَ بالآدابِ الغَربيَّةِ، فلمَّا رَأَوُا القَصيدةَ في الشِّعْرِ الإنْكليزيِّ وغيْرِه تَدورُ حَوْلَ مَوْضوعٍ واحِدٍ، ظنُّوا أنَّ ذلك هو الشِّعْرُ حقًّا، وأنَّ ما عداه ضَرْبٌ مِن السُّخْفِ والهَزْلِ، وساعَدَهم على هذا قِلَّةُ عِلمِهم بالشِّعْرِ الجاهِليِّ وطَبيعتِه، فأَكْثَرُهم لا يَحفَظُ الشِّعْرَ الجاهِليَّ، ولا يَعرِفُ مِنه إلَّا البَيْتَ والبَيْتَينِ، وإنَّما يُردِّدُ ما ردَّدَه النَّقَلةُ والرُّواةُ.

يقولُ طه حسين: (ما سَمِعْتُ مِن خُصومِ الشِّعْرِ القَديمِ حَديثَهم عن وَحْدةِ القَصيدةِ عنْدَ المُحْدَثينَ وتَفَكُّكِها عنْدَ القُدَماءِ إلَّا ضَحِكْتُ وأَغْرَقتُ في الضَّحِكِ، والعَجيبُ أنْ تَنْشَأَ الأساطيرُ في العَصْرِ الحَديثِ، وأن تَنْموَ ويَعظُمَ أمْرُها، وتُسَيطِرَ على العُقولِ، معَ أنَّ عَهْدَ الأساطيرِ قدِ انْقَضى، وأصْبَحَ العَقْلُ الحَديثُ أذْكى وأرْقى وأدْنى إلى الحَذَرِ والفِطْنةِ مِن أن يُذعِنَ لها أو يَنْخدِعَ بها، وتَفكُّكُ القَصيدةِ العَربيَّةِ واقْتِصارُ وَحْدتِها على الوَزْنِ والقافِيةِ دونَ المَعنى أسْطورةٌ مِن هذه الأساطيرِ الَّتي أنشَأَها الافْتِنانُ بالأدَبِ الأوْروبيِّ الحَديثِ، والقُصورُ عن تَذوُّقِ الأدَبِ العَربيِّ القَديمِ، والَّذين يُنكِرونَ الوَحْدةَ المَعْنويَّةَ للقَصيدةِ العَربيَّةِ القَديمةِ إنَّما يُدفَعونَ إلى هذا الإنْكارِ لسَبَبَينِ:

الأوَّلُ: أنَّهم لا يَدرُسونَ الشِّعْرَ القَديمَ كما يَنْبغي، ولا يَتعمَّقونَ في أسْرارِه ومَعانيه، وإنَّما يَدرُسونَه دَرْسَ تَقْليدٍ، ويُصَدِّقونَ فيه ما يُقالُ لهم مِنَ الكَلامِ، في غيْرِ تَحْقيقٍ ولا اسْتِقصاءٍ، وقَلَّ مِنهم مَن يَحفَظُ القَصيدةَ كامِلةً، ويَدرُسُها كامِلةً، فَضْلًا عن أن يَحفَظَ القَصائِدَ الطِّوالَ...، وهُمْ مِن هذه النَّاحيةِ يَجْهَلونَ هذا الشِّعْرَ، ويَقْضونَ عليه حينَ يَقْضونَ قَضاءَ الجُهَّالِ.

والسَّببُ الآخَرُ...: أنَّهم يَقْبَلونَ ما يَقولُه الرُّواةُ، وما يَنْقُلونَه إليهم، في غيْرِ تَحفُّظٍ ولا احْتِياطٍ ولا

تَحْقيقٍ، ويَنْسَونَ أنَّ كثيرًا جدًّا مِن الشِّعْرِ القَديمِ لم يُنقَلْ إلى الأجْيالِ مَكْتوبًا، وإنَّما نَقلَتْه الذَّاكِرةُ، فأضاعَتْ مِنه وخلَطَتْ فيه، ولم تُحسِنِ الرِّوايةَ، فكَثُرَ الاضْطِرابُ في هذا الشِّعْرِ، وخُيِّلَ إلى المُحدَثينَ أنَّ هذا الاضْطِرابَ طَبيعيٌّ في الشِّعْرِ القَديم).

على أنَّ هؤلاء المُتَهجِّمينَ على الشِّعْرِ الجاهِليِّ، الَّذين اتَّهموه بتَعدُّدِ المَوْضوعاتِ وعَدَمِ الوَحْدةِ، لو أنْعَموا النَّظَرَ في القَصيدةِ الجاهِليَّةِ، ودَرَسوا ظُروفَ إنْشادِ القَصيدةِ النَّفْسيَّةَ والطَّبيعيَّةَ، وطَبيعةَ الحَياةِ في المُجْتمَعِ الجاهِليِّ، لَوَجَدوا أنَّ القَصيدةَ وإن تَعدَّدَتْ أغْراضُها فإنَّها تَصُبُّ في نَهْرٍ واحِدٍ، وتَدورُ في فَلَكِ مَوْضوعٍ واحِدٍ، فإنَّ الشَّاعِرَ قد يَبدَأُ قَصيدتَه بالغَزَلِ أو ببُكاءِ الأطْلالِ تَمْهيدًا يَربِطُ به بيْنَ حالتِه الشِّعْريَّةِ وبيْنَ غَرَضِه الَّذي ساقَ الشِّعْرَ له، فما ذِكْرُ الأطْلالِ والبُكاءُ عليها ووَصْفُ ما أصابَه مِن الرِّحلةِ إلَّا فِكرةٌ ثانويَّةٌ تَخدُمُ الغَرَضَ الأوَّليَّ والمَوْضوعَ الأساسيَّ للمَوْضوعِ.

على أنَّ بعضَ الباحِثينَ يَذهَبُ بالمُقدِّمةِ الطَّلَليَّةِ إلى تَأويلٍ آخَرَ، يَدفَعُ إلى القولِ بتَماسُكِ القَصيدةِ وإثْباتِ وَحْدتِها المَوْضوعيَّةِ، وذلِك حينَ يَرى أنَّ الأطْلالَ الَّتي يَتَحدَّثُ عنها الشَّاعِرُ ليستْ على حَقيقتِها، وإنَّما هي رَمْزٌ يَسْتخدِمُه الشَّاعِرُ، ويَرمُزُ به لمَوْضوعِه الَّذي يَتَحدَّثُ عنه؛ فالطَّلَلُ رَمْزٌ للزَّمَنِ الَّذي يَتَّسِمُ -رَغْمَ ما يَشوبُه مِن القَسْوةِ- بالإيجابيَّةِ، فليس الطَّلَلُ قَيْدًا أو إشْكالًا مُغلَقًا في حَياةِ الإنْسانِ، وإنَّما هو إطارٌ يَتَمنَّاه الشَّاعِرُ ويَنْتمي إليه، ويَتَمنَّى أن يَعودَ.

وفي هذا السَّبيلِ يَتَّجِهُ الدُّكتورُ مُحمَّد أبو موسى، ويَذهَبُ إلى تَفْسيرِ المُقدِّمةِ الطَّلَليَّةِ لزُهَيْرٍ في مُعلَّقتِه على هذا النَّحْوِ، فيُوضِّحُ فَكَّ تلك الرُّموزِ بقولِه: (وكَلِمةُ: "أمِّ أوْفى" أصْلُ مَعْناها الوَفاءُ، ولا وَفاءَ أوْجَبُ عنْدَ النَّاس مِن الوَفاءِ بعَهْدِ صُلْحٍ يَنبِذُ النَّاسُ الحَرْبَ به، ويَأمَنُ بعضُهم بعضًا به، وقد وُجِدَتْ عَلاقةٌ ظاهِرةٌ بيْنَ أسْماءِ الصَّاحِبةِ ومَضْمونِ القَصائِدِ في شِعْرٍ كَثيرٍ، وقد نَبَّهْتُ على ذلِك، ونُصيبُ ونُخْطِئُ ونَرْجو أن يكونَ خَطَؤُنا سَبيلًا إلى صَوابِ غيْرِنا، ثُمَّ إنَّ كَلِمةَ الدِّمْنةِ

بمَعنى آثارِ الدِّيارِ وما اسْودَّ مِنها تَأتي كَثيرًا بمَعنى الحِقْدِ والضَّغينةِ في القَلْبِ، الَّتي لا يُفصِحُ عنها صاحِبُها، وذَكَرَ زُهَيْرٌ الدِّمْنةَ بِهذا المَعنى، واسْتَبعَدَ أن تكونَ مِن أَخْلاقِ الكِرامِ في مَدْحِه لهَرِمٍ بقَولِه:

يَطلُبُ بالوِتْرِ أقْوامًا فيُدرِكُهــــــمْ حينًا ولا يُدرِكُ الأَعْداءَ بالدِّمَـنِ

يُريدُ: ليستِ الضَّغينةُ والحِقْدُ الكامِنُ في النُّفوسِ طَريقًا يَسلُكُه في قِتالِ الأقْوامِ، وإنَّما شأنُه شأنُ الأقْوياءِ يَطلُبُ وِتْرَه بسَيْفِه جِهارًا نَهارًا.

ثُمَّ إنَّ النَّباتَ الَّذي يَنبُتُ على دِمَنِ الثَّرى يَأتي في كَلامِهِم مَثَلًا للعَلاقاتِ الَّتي ظاهِرُها المُسالَمةُ وفي باطِنِها البَغْضاءُ، وذلِك كقولِ الشَّاعِرِ الَّذي رَواه ابنُ الأنْباريِّ:

وقدْ يَنبُتُ المَرْعى على دِمَنِ الثَّرى وتَبْقى حَزازاتُ النُّفوسِ كما هيا

وهذه الدِّمْنةُ الَّتي لم تَتكلَّمْ تُشيرُ إشارةً ظاهِرةً إلى ما طَوى عليه الحُصَينُ بنُ ضَمْضَمٍ كَشْحَه، وأنَّه تُوشِكُ أن تكونَ المُسْتكنَّةَ، وضَعَ قولَه: "فلا هو أبْداها ولم يَتكلَّمِ"، بإزاءِ قولِه: "دِمَنٌ لم تَكلَّمِ").

فتبيَّنَ بهذا أنَّ مُقدِّماتِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ مُتلاصِقةٌ بالغَرَضِ كتَلاصُقِ الجِلْدِ باللَّحْمِ، ويَترَتَّبُ على ذلك أنَّ الشِّعْرَ الجاهِليَّ تَوافَرتْ فيه الوَحْدةُ العُضْويَّةُ والمَوْضوعيَّةُ، وتَكامَلتْ أجْزاؤُه، واتَّصلَتْ مُقدِّمتُه بمَوْضوعِه، وجاءَ تامَّ النَّسْجِ والتَّرْكيبِ، على أنَّ تَوافُرَ الوَحْدةِ المَوْضوعيَّةِ وعَدَمَها ليست مَناطًا للحُكْمِ على القَصائِدِ بالجَودةِ؛ بلِ العِبْرةُ بحُسْنِ التَّعْبيرِ ورَوْعةِ البَيانِ وتَمامِ إيصالِ المَعنى، فحتَّى وإن افْتَقدَتِ القَصيدةُ الجاهِليَّةُ الوَحْدةَ المَوْضوعيَّةَ فإنَّ الشِّعْرَ الجاهِليَّ يَبْقى أَسْمى ما وصَلَنا مِن المادَّةِ الأدَبيَّةِ العَربيَّةِ.

الفصل الثالث والعشرون: خَصائِصُ الشِّعْرِ الجاهِليِّ

على الرَّغْمِ مِنِ اخْتِلافِ أساليبِ الشُّعَراءِ ومَناحيهم في التَّعْبيرِ ونَظْمِ الشِّعْرِ، وطُرُقِ اسْتِخدامِ الصُّوَرِ والتَّشْبيهاتِ، فإنَّ أشْعارَهم جَميعًا تَمثَّلَتْ فيها بعضُ الخَصائِصِ الَّتي تَربطُها معًا، مِثلُ:

1- **القَصيدةُ الجاهِليَّةُ مُتَماسِكةُ البِناءِ مُتكامِلةِ الأجْزاءِ،** ألفاظُها على قَدْرِ مَعانيها، ومَعانيها مُلائِمةٌ لألفاظِها وأغْراضِها.

2- **المَعاني في الشِّعْرِ الجاهِليِّ واضِحةٌ ظاهِرةٌ،** ليس فيها بُعْدٌ ولا إغْراقٌ في الخَيالِ، وخَالِيةٌ مِن الغُلُوِّ والمُبالَغةِ الَّتي قد تَخرُجُ به عن الحُدودِ المَعْقولةِ.

3- **مال الشُّعَراءُ في شِعْرِهم إلى الإيجازِ،** وابْتَعدوا عن الإطْنابِ وما يَتَّصِلُ به، ولعَلَّ ذلك هو الَّذي جَعَلَ البَيْتَ في قَصائِدِهم وَحْدةً مَعْنويَّةً قائِمةً بنفْسِها.

4- **تَتَألَّفُ القَصيدةُ مِن طائِفةٍ مِن الأبْياتِ المُسْتقلَّةِ الَّتي لا تَحْتاجُ في بَيانِ مَعْناها الجُزْئيِّ إلى ما قبْلَها ولا ما بعْدَها،** وإن كانَ المَعنى العامُّ للقَصيدةِ لا يَتَأتَّى ببعضِ تلك الأبْياتِ دونَ بعضٍ.

5- **تَمْثيلُ الطَّبيعةِ الَّتي كانَ الرَّجُلُ العَربيُّ يَحياها دونَ تَكَلُّفٍ في اللَّفْظِ ولا تَصَنُّعٍ في المَعنى،** بلْ إنَّ شِعْرَهم يَشِفُّ عن طَبيعةِ حَياتِهم بما فيها مِن مُقوِّماتٍ ومَظاهِرَ.

6- **كانَ الشِّعْرُ الجاهِليُّ وسَطًا بيْنَ الغُلُوِّ والجَفاءِ؛** فإذا أرادَ الشَّاعِرُ الجاهِليُّ أن يَتَغزَّلَ فإنَّ غزَلَه لا يكونُ مَكْشوفًا خادِشًا للحَياءِ كاشِفًا للعَوْراتِ، وإذا أرادَ أن يَهْجوَ فإنَّه لا يَتَفحَّشُ في القولِ، فيَأتي الهِجاءُ بَعيدًا عن البَذاءِ والفُحْشِ، كما أنَّه لا يَهْجو رَجُلًا إلَّا بما فيه مِن العُيوبِ.

7- **جاءَ الشِّعْرُ الجاهِليُّ عاليَ** <u>البَلاغةِ</u> **مُتَّسقَ النَّسْجِ والتَّرْكيبِ،** بَعيدًا عنِ الحَشْوِ.

8- **بدايةُ القَصيدةِ بمُقدِّماتٍ تُهيِّئُ المَقامَ للشُّروعِ في المَقْصودِ،** سَواءٌ كانَتْ مُقدِّمةً طَلَليَّةً أم غَزَليَّةً أم نَحْوَ ذلك، على أنَّ بعضَها لم يكنْ يَليقُ به تلك المُقدِّماتُ، فكانوا يَشرَعون في

المَقْصودِ مُباشَرةً، وذلك فِي مِثْلِ قَصائِدِ الرِّثاءِ.

٩- التَّرفُّعُ فِي الشِّعْرِ عمَّا يُسقِطُ المُروءةَ ويَخدِشُ الحَياءَ؛ ولِهذا لم يَشِعِ الوَصْفُ والغَزَلُ الصَّريحُ إلَّا عنْدَ أمْثالِ امْرِئِ القَيْسِ والأعْشى فحَسْبُ، وكانَ الغالِبُ على سائِرِ الشُّعَراءِ التَّغزُّلَ العَفيفَ، أو وَصْفَ ما يَظهَرُ عادةً؛ كالوَجْهِ والشَّعْرِ والقَوامِ.

الفصل الرَّابعَ والعشرون: مَنزِلةُ الشُّعَراءِ عنْدَ الجاهِلِيِّينَ

كانَ الشَّاعِرُ لِسانَ القَبيلةِ المُفوَّهَ، وكاتِبَها الَّذي يُخلِّدُها في التَّاريخِ، والحَكَمَ الَّذي تَحْتكِمُ إليه في الأُمورِ العَقْليَّةِ والحِسِّيَّةِ، وأكْبَرُ آيةٍ على هذا أنَّ القَبيلةَ كانَتْ إذا نبَغَ فيها شاعِرٌ أقامَتِ الدُّنيا احْتِفالًا بتلك المُناسَبةِ، قالَ ابنُ رَشيقٍ: (كانَتِ القَبيلةُ مِن العَربِ إذا نبَغَ فيها شاعِرٌ أتَتِ القَبائِلُ فهنَّأَتْها، وصَنَعَتِ الأطْعِمةَ، واجْتَمعَ النِّساءُ يَلعَبْنَ بالمَزاهِرِ، كما يَصْنَعونَ في الأعْراسِ، ويَتَباشَرُ الرِّجالُ والوِلْدانُ؛ لأنَّه حِمايةٌ لأعْراضِهم، وذَبٌّ عن أحْسابِهم، وتَخْليدٌ لمَآثِرِهم، وإشادةٌ بذِكْرِهم).

وقد عرَفَ ذلك الفَضْلَ المُسْتَشْرِقُ نولدكه فقالَ: (الشَّاعِرُ الجاهِليُّ نَبيُّ قَبيلتِه، وزَعيمُها في السِّلْمِ، وبَطَلُها في الحَرْبِ، تَطلُبُ الرَّأيَ عنْدَه في البَحْثِ عن مَراعٍ جَديدةٍ، وبكَلِمتِه وَحدَها تُضرَبُ الخِيامُ وتُحَلُّ، كما كانَ يَحْدو الرَّحَّالةَ العِطاشَ في التَّنْقيبِ عنِ الماءِ).

بلْ كانَ الشَّاعِرُ سَفيرَ قَوْمِه لدى المُلوكِ، فيَدخُلُ على كِسْرى وقَيْصَرَ، والغَساسِنةِ والمَناذِرةِ، كما كانَ النَّابِغةُ والأعْشى وغيْرُهم، فتُهيَّأُ له المَجالِسُ، ويَعرِضُ قَضيَّةَ قَوْمِه ومَطالِبَهم.

ولِهذا كانَتِ القَبائِلُ حَريصةً على رِوايةِ شِعْرِ شاعِرِها، فكانوا يَتَناقَلونَه جيلًا بعْدَ جيلٍ؛ إذ هذا الشِّعْرُ هو الَّذي يُدَوِّنُ مَفاخِرَهم، ويُعدِّدُ مآثِرَهم، ويَدفَعُ عنهم المَثالِبَ والنَّقائِصَ، ويَرُدُّ افْتِراءَ الخُصومِ ونِكايةَ الأعْداءِ.

قال أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ: (كانَ الشَّاعِرُ في الجاهِليَّةِ يُقَدَّمُ على الخَطيبِ؛ لفَرْطِ حاجتِهم إلى الشِّعْرِ الَّذي يُقيِّدُ عليهم مآثِرَهم ويُفخِّمُ شأنَهم، ويُهوِّلُ على عَدُوِّهم ومَن غَزاهم، ويُهيِّبُ مِن فُرسانِهم، ويُخوِّفُ مِن كَثْرةِ عَدَدِهم، ويَهابُهم شاعِرُ غيْرِهم فيُراقِبُ شاعِرَهم).

الفصل الخامس والعشرون: مَعْرفةُ العَربِ بالنَّثْرِ الفَنِّيِّ

يَسْتطيعُ الباحِثُ أن يَجِدَ في العَصْرِ الجاهِليِّ آثارًا تَدُلُّ على أنَّهم قد عَرَفوا النَّثْرَ الأدَبيَّ بفُنونِه المُخْتلِفةِ، أو على الأقَلِّ عَرَفوا بعضَ أنْواعِه؛ فالخَطابةُ كانَتْ مَعْروفةً آنَذاك، وتَدُلُّ بعضُ الأخْبارِ على أنَّهم عَرَفوا الأدَبَ القَصَصيَّ، واهْتَمُّوا برِوايةِ تلك القِصَصِ والنَّوادِرِ، وأنَّهم كانوا يَقْطعونَ مَلَلَهم وسآمَتَهم بذِكْرِها، وقد وَرَدَ في كُتُبِ السِّيرةِ أنَّ النَّضْرَ بنَ الحارِثِ كانَ يَعلَمُ شيئًا مِن تلك القِصَصِ، فكانَ يَقُصُّ على النَّاسِ قِصَّةً أسْطوريَّةً فارِسيَّةً شَهيرةً، وهي قِصَّةُ إسْفِنْديارَ ورُسْتُمَ الَّتي دارَتْ حَوْلَها المَلْحَمةُ الشَّهيرةُ الشَّاهنامةُ، الَّتي ألَّفَها الفِرْدَوسيُّ، فكانَ النَّضْرُ يُعارِضُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتلك الأخْبارِ، ويقولُ: "اكْتَتَبَها كما اكْتَتَبْتُها، فبماذا مُحمَّدٌ أحْسَنُ حَديثًا مِنِّي؟!"، فدَلَّ ذلك على مَعْرفةِ الكِتابةِ الأدَبيَّةِ خاصَّةً.

ولِذلك ذَهَبَ أَكْثَرُ العُلَماءِ إلى أنَّ العَرَبَ قبْلَ الإسْلامِ كانوا قد عَرَفوا النَّثْرَ الفَنِّيَّ، وأنَّهم اسْتَخْدموا أنْواعًا كَثيرةً مِنه، بل أجادوه إجادةً تامَّةً، ويَشهَدُ لِذلك فوْقَ ما ذَكَرْنا:

1- **وُجودُ النَّثْرِ الفَنِّيِّ في الأمَمِ القَديمةِ،** مِثْلُ الفُرْسِ والهُنودِ والمِصْريِّينَ القُدَماءِ قبْلَ الميلادِ بقُرونٍ كَثيرةٍ، فما المانِعُ أن يكونَ للعَربِ كذلك نَثْرٌ أدَبيٌّ قبْلَ الميلادِ أو بعْدَه؟!

2- **إنْزالُ القُرآنِ وتَحدِّي اللهِ به البُلَغاءَ والفُصَحاءَ مِن العَربِ يَدُلُّ على أنَّهم عَرَفوا ذلك النَّوعَ مِن الأدَبِ وأجادوه،** وإلَّا فما إعْجازُ القُرآنِ إذا نَزَلَ على قَوْمٍ بلُغةٍ أو أُسْلوبٍ لا عَهْدَ لهم به؟!

3- **بَقاءُ كَثيرٍ مِن صُوَرِ النَّثْرِ الفَنِّيِّ في مَصادِرِ الأدَبِ وأمَّهاتِ كُتُبِه مِن خَطابةٍ جَيِّدةٍ ونَصائِحَ بَليغةٍ،** وإن كانَ مُعظَمُ هذا النَّثْرِ قد فُقِدَ وضاعَ، فإنَّ النُّصوصَ القَليلةَ تَدُلُّ على وُجودِ الكَثيرِ مِنه.

وقد رَوى لنا الرُّواةُ نُصوصًا نَثْريَّةً تُعَدُّ غايةً في البَلاغةِ والإبْداعِ الفَنِّيِّ؛ فمِنها قولُ أمِّ مَعبَدٍ في وَصْفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حينَ مَرَّ عليها ساعةَ الهِجْرةِ وطَلَبَ مِنها لَبَنًا.

وأرْجَعَ هؤلاء العُلَماءُ السَّبَبَ في ضَياعِ ذلك الكَمِّ الهائِلِ مِن الفَنِّ الأدَبيِّ الجاهِليِّ إلى طَبيعةِ العَربِ آنَذاك؛ فإنَّ العَربَ كما قالَ الجاحِظُ: (وكلُّ شيءٍ للعَربِ فإنَّما هو بَديهةٌ وارْتِجالٌ، وكأنَّه إلْهامٌ وليسَتْ هناك مُعاناةٌ ولا مُكابَدةٌ ولا إجالةُ فِكْرةٍ ولا اسْتِعانةٌ، وإنَّما هو أن يَصرِفَ وَهْمَه إلى جُملةِ المَذهَبِ وإلى العَمودِ الَّذي إليه يَقصِدُ، فتَأتيه المَعاني أرْسالًا، وتَنْثالُ عليه الألْفاظُ انْثيالًا، ثُمَّ لا يُقيِّدُه على نفْسِه ولا يُدَرِّسُه أحَدًا مِن وَلَدِه.

وكانوا أُمِّيِّينَ لا يَكْتُبونَ، ومَطْبوعينَ لا يَتكلَّفونَ، وكانَ الكَلامُ الجَيِّدُ عنْدَهم أظْهَرَ وأَكْثَرَ، وهم عليه أقْدَرَ وأقْهَرَ، وكلُّ واحِدٍ في نفْسِه أنْطَقُ، ومَكانُه مِن البَيانِ أرْفَعُ، وخُطَباؤُهم أوْجَزُ، والكَلامُ عليهم أسْهَلُ، وهو عليهم أيْسَرُ مِن أن يَفْتَقِروا إلى تَحَفُّظٍ أو يَحْتاجوا إلى تَدارُسٍ. وليس هُمْ كمَن حَفِظَ عِلمَ غيْرِه واحْتَذى على كَلامِ مَن كانَ قبْلَه، فلم يَحفَظوا إلَّا ما علِقَ بقُلوبِهم والْتَحمَ بصُدورِهم واتَّصَلَ بعُقولِهم مِن غيْرِ تَكلُّفٍ ولا قَصْدٍ ولا تَحَفُّظٍ ولا طَلَبٍ، وإنَّ شيئًا مِن الَّذي في أيْدينا جُزْءٌ مِنه لبِالمِقدارِ الَّذي لا يَعلَمُه إلَّا مَن أحاطَ بقَطْرِ السَّحابِ وعَدِّ التُّرابِ، وهو اللهُ الَّذي يُحيطُ بما كانَ، والعالِمُ بما سيَكونُ).

على أنَّ بعضَ المُسْتشرِقينَ قد نفَوا مَعْرفةَ العَربِ الجاهِليِّينَ بالنَّثْرِ الفَنِّيِّ، وتابَعَهم على ذلك بعضُ المُعاصِرينَ، ومِنهم الدُّكتورُ طه حسين.

الفصل السادس والعشرون: أيهما أسبق؟ الشعر أم النثر؟

اخْتَلَفَ الأدَباءُ والنُّقَّادُ المُعاصِرونَ في نِسبةِ الأسْبَقيَّةِ إلى أيٍّ مِن الشِّعْرِ والنَّثْرِ، ولم يَلْتفِتْ إلى تلك القَضيَّةِ العُلَماءُ والأدَباءُ القُدَماءُ؛ إذ لا يُجْدي نَفْعًا مَعْرفةُ أيُّهما أسْبَقُ، إلَّا أنَّ إدْخالَ الفَلسفةِ في مَبادِئِ العُلومِ دفَعَتِ الباحِثينَ إلى النَّظَرِ في أصولِ الأشْياءِ وبداياتِ الظَّواهِرِ الَّتي يُمكِنُ إخْضاعُها للبَحْثِ والنَّظَرِ، وقد أثارَ الغَرْبُ هذه المَسألةَ، وتَبِعَهم في تَصوُّرِها والبَحْثِ فيها الأُدَباءُ والنُّقَّادُ العَربُ.

وقد ذَهَبَ فَريقٌ مِن الباحِثينَ والمُسْتَشرِقينَ إلى أنَّ الشِّعْرَ أقْدَمُ مِن النَّثْرِ؛ إذ النَّثْرُ وإن كانَ كَلامًا سَهْلًا يَتأتَّى للإنْسانِ في سُهولةٍ ويُسْرٍ، فإنَّ الكَلامَ المُرسَلَ الخاليَ عن الوَزْنِ والقافيةِ لا يَأخُذُ بالألْبابِ، ولا يَتعلَّقُ بالأفْئِدةِ؛ ولِهذا فإنَّ الشِّعْرَ هو أوَّلُ ما عَرَفَ الإنْسانُ مِن الأدَبِ، ومعَ تَطوُّرِ الأُمَمِ وازْدِهارِها شيئًا فشيئًا نَما عن ذلك الكَلامِ المُرسَلِ نَوْعٌ مِن الكَلامِ الأدَبيِّ الَّذي يُخاطِبُ العَقْلَ والعاطِفةَ معًا، ويَأسِرُ مَكامِنَ العُقولِ والأسْماعِ.

في حينِ ذهَبَ آخَرونَ إلى أنَّ النَّثْرَ أقْدَمُ مِن الشِّعْرِ؛ ذلك أنَّ الشِّعْرَ مَرحَلةٌ مُتطوِّرةٌ مِن ذلك الكَلامِ البَليغِ الَّذي يُخاطِبُ العَقْلَ ويُؤثِّرُ في القَلْبِ، وهو مُرَكَّبٌ مِن الوَزْنِ والسَّجْعِ، في حينِ أنَّ النَّثْرَ بَسيطٌ يَقومُ على السَّجْعِ فحسْبُ، دونَ أن يَتَوجَّبَ فيه الإتْيانُ بالسَّجْعِ كما في الشِّعْرِ، والبَسيطُ سابِقٌ على المُركَّبِ، فكانَ مَعنى ذلك أنَّ النَّثْرَ سابِقٌ على الشِّعْرِ لا العَكْسُ. وهذا القولُ أرْجَحُ وأدِلَّتُه أقْوى.

ويُؤيِّدُ ذلك قَوْلُ ابنِ رَشيقٍ: (وكانَ الكَلامُ كُلُّه مَنْثورًا، فاحْتاجَتِ العَربُ إلى الغِناءِ بمَكارِمِ أخْلاقِها، وطِيبِ أعْراقِها، وذِكْرِ أيَّامِها الصَّالِحةِ، وأوْطانِها النَّازِحةِ، وفُرْسانِها الأمْجادِ،

وسُمَحائِها الأجْوادِ؛ لتَهُزَّ أنْفُسَها إلى الكَرَمِ، وتَدُلَّ أبْناءَها على حُسْنِ الشِّيَمِ، فتَوهَّموا أعاريضَ جَعَلوها مَوازينَ الكَلامِ، فلمَّا تَمَّ لهم وَزْنُه سمَّوه شِعْرًا؛ لأنَّهم شعَروا به).

الفصل السابع والعشرون: الفنون النثرية في العصر الجاهلي

1 – الخطابة:

كَانَ للخُطَبَاءِ في الجاهِليَّةِ مَنزِلةٌ عاليةٌ جدًّا؛ فالخَطيبُ لِسانُ القَبيلةِ والمُنافِحُ عنها، وحامي عِرْضِها بلِسانِه، فكانَتِ القَبيلةُ الخاليةُ مِن الخُطَبَاءِ عُرْضةً للقَبائِلِ الأخرى؛ لذلك عَلَتْ مَنزِلةُ الخَطيبِ، وراحَ الشُّعَراءُ يَفْتخِرونَ بالخَطابةِ، ويَتغنَّونَ بها فيما يَتغنَّونَ به مِن المَفاخِرِ، وقد زادَ الخَطابةَ رِفْعةً أنَّها كانَتْ مِهْنةَ الأشْرافِ والرُّؤَساءِ والنَّابِهينَ مِن القَبائِلِ.

وقد كانَ الشَّاعِرُ أوَّلَ الأمْرِ مُقدَّمًا على الخَطيبِ؛ إذِ الشِّعْرُ أصْعَبُ نَظْمًا وتَأليفًا، ولا يَتأتَّى لكلِّ أحَدٍ، غيْرَ أنَّ الشُّعَراءَ سَلَكوا به غيْرَ سَبيلِ الجادَّةِ، فصاروا يَسْتَجْدونَ به ويَتكسَّبونَ بمَدْحِ العَظيمِ والحَقيرِ، فعَدَلَ النَّاسُ عن الشُّعَراءِ إلى الخُطَبَاءِ.

قالَ أبو عَمْرِو بنُ العَلاءِ: (كانَ الشَّاعِرُ في الجاهِليَّةِ يُقَدَّمُ على الخَطيبِ؛ لفَرْطِ حاجتِهم إلى الشِّعْرِ الَّذي يُقَيِّدُ عليهم مَآثِرَهم، ويُفخِّمُ شأنَهم، ويُهوِّلُ على عَدُوِّهم ومَن غَزاهم، ويُهَيِّبُ مِن فُرْسانِهم، ويُخوِّفُ مِن كَثْرةِ عَدَدِهم، ويَهابُهم شاعِرُ غيْرِهم فيُراقِبُ شاعِرَهم، فلمَّا كَثُرَ الشِّعْرُ والشُّعَراءُ، واتَّخَذوا الشِّعْرَ مَكْسَبةً ورَحَلوا إلى السُّوقةِ، وتَسرَّعوا إلى أعْراضِ النَّاسِ، صارَ الخَطيبُ عنْدَهم فوْقَ الشَّاعِرِ).

وقد بلَغَتْ مَنزِلةُ الخَطابةِ والخَطيبِ أن كانَ الشُّعَراءُ أنْفُسُهم يَتَفاخَرونَ بأنَّ فيهم خَطيبًا مُفوَّهًا.

مَوْضوعاتُ الخَطابةِ:

اسْتُعمِلَتْ الخَطابة في أغْراضٍ كَثيرةٍ؛ مِنها:

1 – المُفاخَراتُ والمُنافَراتُ:

عَرَفَ الجاهِليُّونَ لَوْنًا مِن الهِجاءِ والتَّفاخُرِ فيما بيْنَهم، وهو المُفاخَراتُ والمُنافَراتُ، وهو مُحاوَرةٌ كَلاميَّةٌ بيْنَ رَجُلَينِ أو أكْثَرَ، وفيها يَتَباهى كلٌّ مِن المُتَفاخِرَينِ بالأحْسابِ والأنْسابِ، ويَشيدُ بما له مِن خِصالٍ، وما قامَ به مِن جَلائِلِ الأعْمالِ، وكانَتْ تَحدُثُ بيْنَ القَبائِلِ كرَبيعةَ ومُضَرَ، وبَكْرٍ وتَغْلِبَ مِن

رَبيعةَ، وقَيْسٍ وتَميمٍ مِن مُضَرَ، وقد تَغَلْغَلتِ المُفاخَراتُ في بُطونِهم حتَّى كانَتْ بيْنَ ابنَيِ العَمِّ في العَشيرةِ الواحِدةِ.

وفي أكْثَرِ الأحْيانِ كانَتِ المُفاخَراتُ تَشتدُّ إلى دَرَجةٍ أن يَتَحاكَمَ المُتَفاخِرانِ إلى رَجُلٍ حَكيمٍ يَفصِلُ بيْنَهما، فرُبَّما فصَلَ بيْنَهما وفَضَّلَ أحَدَهما على الآخَرِ، ويُسمَّى الغالِبُ حينَئذٍ نافِرًا والمَغلوبُ مَنْفورًا، ورُبَّما عَدَلَ عن التَّفْضيلِ إلى الإصْلاحِ، ويَقومُ في القَوْمِ خَطيبًا، يَحُثُّهم على الأُخُوَّةِ والوَحْدةِ، ونَبْذِ الفُرقةِ والاخْتِلافِ.

ومن تلك المُنافَراتِ: منافرة قُرَيش وخُزاعةَ، واحْتِكَامِهم إلى هاشِمِ بنِ عبْدِ مَنافٍ.

2- خُطَبُ إصْلاحِ ذاتِ البَيْنِ وإطْفاءِ نائِرةِ الحَرْبِ:

كانَ للخُطَباءِ أثَرٌ كَبيرٌ في إخْمادِ الفِتَنِ والحُروبِ الَّتي اسْتَشْرَتْ بيْنَ القَبائِلِ والبُطونِ، فرُبَّما أوْقَفَتِ الكَلِمةُ حَرْبًا ضَروسًا قبْلَ بدايتِها، كما فَعَلَ هاشِمُ بنُ عبْدِ مَنافٍ حينَ احْتكمَتْ إليه قُرَيْشٌ وخُزاعةُ، وكصَنيعِ هَرِمِ بنِ قُطْبَةَ الفَزاريِّ حينَ تَنافَرَ إليه عامِرُ بنُ الطُّفَيلِ وعَلْقَمةُ بنُ عُلاثةَ.

كما أنَّ الخُطَباءَ كانوا يُساعِدونَ في حَقْنِ الدِّماءِ وتَثْبيتِ السِّلْمِ بيْنَ الفَريْقَينِ، فكما أنْشَدَ زُهَيْرُ بنُ أبي سُلْمى مُعلَّقتَه في الصُّلْحِ بيْنَ عَبْسٍ وذُبْيانَ، كذلك كانَ قَيْسُ بنُ خارِجةَ، حينَ قامَ خَطيبًا بعْدَ انْتِهاءِ الحَرْبِ وعَقْدِ الصُّلْحِ، فخَطبَ خُطبةً عَصْماءَ، قامَ فيها مِن طُلوعِ الشَّمْسِ إلى غُروبِها، يَأمُرُ بالتَّواصُلِ ويَنْهى عن التَّقاطُعِ، دونَ أن يُكرِّرَ كَلِمةً أو يُعيدَ مَعنًى، فسُمِّيَتْ "العَذْراءَ"؛ لأنَّه كانَ أبا عُذْرِها.

3- خُطَبُ المُناسَباتِ الاجْتِماعيَّةِ كالزَّواجِ والإصْهارِ:

اعْتادَ العَربُ أن يَقومَ في مَجلِسِ الزَّواجِ أحَدُ أقارِبِ الخاطِبِ، فيَخطُبَ في الحاضِرينَ، يَذكُرُ لهم مَناقِبَ الخاطِبِ ومَآثِرَه، ويَعرِضَ أمْرَ الخِطبةِ بيْنَ أيْديهم، فيُجيبُه إلى ذلك خَطيبٌ آخَرُ مِن أهْلِ المَخْطوبةِ. وقدِ اعْتادَ العَرَبُ أن يَدخُلَ الإطْنابُ خُطبةَ الطَّالِبِ، في حينِ تَعْتَمِدُ خُطبةُ الرَّدِّ على الإيجازِ.

ومِن أمْثِلةِ هذا: خُطبةُ أبي طالِبٍ حينَ أرادَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَخطُبَ خَديجةَ.

4- خُطَبُ الإرْشادِ والوَعْظِ:

وهي الخُطَبُ الَّتي كانَتْ تُلْقى في مَجامِعِ النَّاسِ وأسْواقِهم لإرْشادِهم لخَيْرٍ أو تَوْجيهِهم لمَعْروفٍ، وقد اشْتَهرَ في هذا النَّوْعِ مِن الخُطَبِ قُسُّ بنُ ساعِدةَ؛ فقد كانَ أُسْقُفًا لنَجْرانَ، وكانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وكانَ يَخطُبُ في النَّاسِ في سوقِ عُكاظٍ، ورآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُبُ قبْلَ البَعثةِ.

5- خُطَبُ الحَماسةِ والتَّحْفيزِ للقِتالِ:

كانَ الخُطَباءُ قُبيلَ الغاراتِ والغَزَواتِ يَستَحِثُّونَ النَّاسَ على القِتالِ والثُّبوتِ، وعَدَمِ الفِرارِ والانْهزامِ، وكانَ لِذلك أعَظَمُ الأثَرِ في المُقاتِلينَ؛ فمِن ذلك خُطبةُ هانِئِ بنِ قَبيصةَ البَكْريِّ، يَحُضُّ قَوْمَه على القِتالِ يَوْمَ ذي قارٍ، وهو يَوْمٌ مَشْهورٌ مِن أيَّامِهم.

خَصائِصُ الخَطابةِ في العَصْرِ الجاهِليِّ:

1- لم يُكثِرِ الجاهِليُّونَ مِن الخُطَبِ الطَّويلةِ، بل جاءَتْ أغْلَبُ خُطَبِهم قَصيرةً لعَدَمِ تَعدُّدِ الأغْراضِ فيها، وعَدَمِ وُجودِ الأُسُسِ والقَواعِدِ الَّتي تَقومُ عليها الخُطَبُ.

2- تَمْتازُ هذه الخُطَبُ بالنَّبْرةِ الخَطابيَّةِ الهادِئةِ الَّتي تَعْتمِدُ على التَّأمُّلِ وسياقِ الأدِلَّةِ والبَراهينِ للتَّأثيرِ في السَّامِعِ.

3- تَعْتمِدُ الخُطبةُ على الارْتِجالِ وحُضورِ الذِّهْنِ، مِن غيْرِ سابِقِ إعْدادٍ أو تَحْضيرٍ لها.

4- لم يكُنِ الخَطيبُ يَتأنَّقُ في اخْتِيارِ الألْفاظِ ذاتِ النَّغْمةِ الموسيقيَّةِ، أو تَكلُّفِ السَّجْعِ، ولم يكنْ يَقصِدُ المُحسِّناتِ البَديعيَّةَ ولا يَتَعمَّدُها، بل كانَ يَأتي كلُّ ذلك في كَلامِهم على السَّجيَّةِ.

5- جاءَتْ خُطَبُهم موجَزةً قَليلةَ المَباني كَثيرةَ المَعاني؛ لأنَّ ذلك ألْصَقُ بالنَّفْسِ وأقْرَبُ للقَلْبِ وأفْضَلُ في الرِّوايةِ والحِفْظِ.

6- كانَ الخُطَباءُ يَتَخيَّرونَ الألْفاظَ المُتَداوَلةَ والمَعانيَ المُؤثِّرةَ الَّتي تُسيطِرُ على العُقولِ والقُلوبِ.

7- كانَ الخَطيبُ أحْيانًا يُضَمِّنُ خُطبتَه بعضَ الأبْياتِ الشِّعْريةِ لِما في ذلك مِن جَذْبِ انْتِباهِ السَّامِعِ وإيصالِ المُرادِ إلى المُتلقِّي.

8- قُرْبُ المَعنى ووُضوحُه وعَدَمُ الإغْرابِ فيه.

9- شُيوعُ الحِكْمةِ فيها.

مِن أشْهَرِ خُطَباءِ الجاهِليَّةِ:

لمَّا كانَ الخَطيبُ في القَبيلةِ لِسانَها الَّذي يَتكلَّمُ عنها، وراعيَها الَّذي يَذودُ عنها الخُصومَ، وحَكيمَها الَّذي تَحْتكِمُ إليه؛ كانَتْ كلُّ قَبيلةٍ تَسْعى إلى أن يكونَ فيها الخُطَباءُ، كما حرَصَتْ على أن يكونَ فيها الشُّعَراءُ؛ ولِهذا قلَّما تَجِدُ قَبيلةً جاهِليَّةً ليس فيها خَطيبٌ؛ ففي قُرَيشٍ مَثَلًا: عُتْبةُ بنُ رَبيعةَ، وسُهَيلُ بنُ عَمْرٍو، وهاشِمُ بنُ عبْدِ مَنافٍ، ونُفَيلُ بنُ عبْدِ العُزَّى -جَدُّ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ- وغيْرُهم.

وكانَ عَمْرُو بنُ عمَّارٍ الطَّائيُّ خَطيبًا لمَذْحِجٍ كُلِّها، كما كانَ هانِئُ بنُ قَبيصةَ خَطيبَ بَني بَكْرٍ، وكانَ زُهَيْرُ بنُ جَنَابٍ خَطيبَ كَلْبٍ وقُضاعةَ وشاعِرَها، وكانَ رَبيعةُ بنُ جُذارٍ الأسَديُّ خَطيبَ بَني أَسَدٍ.

وفي المَدينةِ كانَ قَيْسُ بنُ الشَّمَّاسِ وابنُه ثابِتٌ -خَطيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وسَعْدُ بنُ الرَّبيعِ، ومَسْلَمةُ بنُ مَخْلَدِ بنِ الصَّامِتِ -خالُ حسَّانَ بنِ ثابِتٍ- وغيْرُهم.

وكانَ مِن الخُطَباءِ البُلَغاءِ والحُكَّامِ الرُّؤَساءِ: أَكْثَمُ بنُ صَيْفيٍّ حَكيمُ العَربِ وخَطيبُ تَميمٍ، وهَرِمُ بنُ قُطْبَةَ بنِ سيَّارٍ الفَزاريُّ، ولَبيدُ بنُ رَبيعةَ الشَّاعِرُ.

2- سجع الكهان:

كانَ في الجاهِليَّةِ أشْخاصٌ يَزعُمون أنَّهم يَعلَمونَ الغَيْبَ، وأنَّ لهم خُدَّامًا مِن الجِنِّ، يُسمَّى الواحِدُ مِنهم رَئِيًّا، فكانوا يُخْبِرونَهم بالأمورِ المُسْتقبَلةِ، ويُطْلِعونَهم على الغَيْبِ؛ ولِهذا كانَ لِهؤلاء الكَهَنةِ تَأثيرٌ كَبيرٌ في النَّاسِ، وكانَتْ لهم رِياسةٌ في قَوْمِهم؛ فكانَتِ القَبيلةُ تَصدُرُ عن رَأيِهم، ويَأخُذونَ بقَوْلِهم في الحُروبِ والغَزواتِ والأسْفارِ، ويُفسِّرونَ لهم رُؤاهم وأحْلامَهم.

وهؤلاء الكُهَّانَ اعْتَمَدوا في كَلامِهم على السَّجْعِ، واخْتِيارِ الكَلِماتِ الغامِضةِ الَّتي لا يَبينُ معَها المَعنى المُرادُ، ويُكثِرونَ مِن اسْتِعمالِ الرَّمْزِ في كَلامِهم.

وقد كانَ أكْثَرُ هؤلاء الكُهَّانِ في اليَمَنِ يَعيشونَ في بُيوتِها الوَثَنيَّةِ، ورُبَّما قَطَعَ العَربيُّ مَسيرةَ أيَّامٍ ولَيالٍ ليَأْخُذَ رَأيَ أحَدِ أولئك الكُهَّانِ الَّذين انْتَشرَ أمْرُهم واشْتَهرَ كَلامُهم؛ فمِن هؤلاء شِقُّ بنُ الصَّعْبِ، وسَطيحُ بنُ رَبيعةَ الذِّئْبيُّ، وسَوادُ بن قارِبٍ الدَّوْسيُّ الَّذي أدْرَكَ الإسلامَ وأسْلَمَ، والمَأمورُ الحارِثيُّ وغيْرُهم.

ومِن الكاهِناتِ النِّساءِ: الشَّعْثاءُ، وكاهِنةُ ذي الخَلَصةِ، والكاهِنةُ السَّعْديَّةُ، والزَّرْقاءُ بِنْتُ زُهَيْرٍ، والغَيْطلةُ القُرَشيَّةُ، وزَبْراءُ كاهِنةُ بَني رِئامٍ.

وقد كَرِهَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا السَّجْعَ وعابَه؛ فقد رَوى أبو هُرَيرةَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ قَضى في امْرَأتَينِ مِن هُذَيلٍ اقْتَتَلَتا، فرَمَتْ إحْداهُما الأخرى بحَجَرٍ، فأصابَ بَطْنَها وهي حامِلٌ، فقَتَلَتْ وَلَدَها الَّذي في بَطْنِها، فاخْتَصَموا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقَضى أنَّ دِيَةَ ما في بَطْنِها غُرَّةٌ؛ عبْدٌ أو أمَةٌ، فقالَ وَلِيُّ المَرْأةِ الَّتي غَرِمَتْ: كيف أغْرَمُ -يا رَسولَ اللهِ- مَن لا شَرِبَ ولا أكَل، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَل، فمِثْلُ ذلك يُطَل! فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **(إنَّما هذا مِن إخْوانِ الكُهَّانِ)**.

وليس في هذا الحَديثِ ذَمٌّ للسَّجْعِ مُطلَقًا، وإنَّما اسْتِقباحٌ لِما أتى به المُتكلِّمُ؛ حيثُ تَكلَّفَ التَّسْجيعَ والإتْيانَ به على غيْرِ الطَّبْعِ والسَّليقةِ، وإنَّما يُعابُ السَّجْعُ إذا احْتاجَ مُتكلِّفُه إلى تَنْقيصِ المَعنى أو زِيادتِه، فالَّذي فاتَه مِن المَعنى يَقبُحُ، وتَرْكُ السَّجْعِ لا يَقبُحُ، فيكونُ حينَئذٍ السَّجْعُ قَبيحًا لاسْتِلزامِ القُبْحِ، وهو ما قالَ فيه الإمامُ عبْدُ القاهِرِ الجُرْجانيُّ: (ولن تَجِدَ أيْمَنَ طائِرًا، وأحْسَنَ أوَّلًا وآخِرًا، وأهْدى إلى الإحْسانِ، وأجْلَبَ للاسْتِحسانِ؛ مِن أن تُرسِلَ المَعانيَ على سَجيَّتِها، وتَدَعَها تَطْلُب لأنْفُسِها الألْفاظَ؛ فإنَّها إذا تُرِكَتْ وما تُريدُ لم تَكْتَسِ إلَّا ما يَليقُ بها، ولم تَلبَسْ مِن المَعارِضِ إلَّا ما يَزينُها، فأمَّا أن تَضَعَ في نفْسِك أنَّه لا بُدَّ مِن أن تُجنِّسَ أو تَسجَعَ بلَفْظَينِ مَخْصوصَينِ، فهو الَّذي أنت مِنه بعَرَضِ الاسْتِكراهِ، وعلى خَطَرٍ مِن الخَطَأِ والوُقوعِ في الذَّمِّ).

3- الوَصايا:

اعْتادَ العَربُ أنَّ الإنْسانَ إذا أَحَسَّ بدُنُوِّ أجَلِه أو عَزَمَ على السَّفَرِ أو نَحْوِ ذلك يوصي أهْلَه بما فيه صَلاحُهم ورُشْدُهم، ويُرَغِّبُهم في الفَضائِلِ والتَّخلُّقِ بالأخْلاقِ القَويمةِ. وقد تَنوَّعَتْ طُرُقُ أداءِ تلك الوَصايا ونَقْلِها بيْنَ المُشافَهةِ والكِتابةِ؛ ولِهذا فإنَّ الوَصايا جَمَعَتْ في خَصائِصِها خَصائِصَ الرِّسالةِ المَكْتوبةِ والخُطبةِ الشَّفَويَّةِ.

وقد أُلِّفَتْ بعضُ الكُتُبِ في الوَصايا، مِثلُ كِتابِ الوَصايا لِدِعْبِلٍ الخُزاعيِّ، والوَصايا لأبي حاتِمٍ السِّجِسْتانيِّ، ووَصايا المُلوكِ وأبْناءِ المُلوكِ للوَشَّاءِ، كما أفْرَدَ لها المُؤلِّفونَ في الأدَبِ أبْوابًا أو فُصولًا في كُتُبِهم للحَديثِ عنها وبَيانِ خَصائِصِها وذِكْرِ أمْثِلتِها.

خَصائِصُ الوَصايا في الجاهِليَّةِ:

تَتنوَّعُ خَصائصُ الوَصايا الجاهِليَّةِ بيْنَ الخَصائِصِ الفَنِّيَّةِ والفِكريَّةِ؛ فأبْرَزُ الخَصائِصِ الفَنِّيَّةِ يتَمثَّلُ في:

1- التَّنْويعِ بيْنَ اللُّغةِ المُرْسَلةِ الخاليةِ مِن المُحسِّناتِ البَديعيَّةِ، وبيْنَ الأُسلوبِ المُسجَّعِ، والاعْتِمادِ على الجُمَلِ القَصيرةِ المُتوازِنةِ.

2- ضَعْفِ الرَّوابِطِ بيْنَ الأفْكارِ، وعَدَمِ التَّسَلْسُلِ بيْنَ الجُمَلِ على أساسِ المَعاني.

3- الاعْتِمادِ على الأُسلوبِ الإنْشائيِّ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ واسْتِفهامٍ.

4- الاعْتِمادِ على الأُسلوبِ المُوجَزِ الَّذي لا مَجالَ فيه للحَشْوِ والإطْنابِ.

أمَّا الخَصائِصُ الفِكريَّةُ فمِنها:

1- الحَثُّ على مَكارِمِ الأخْلاقِ والعِفَّةِ والتَّحلِّي بالخِصالِ الكَريمةِ.

2- انْعِكاسُ أثَرِ التَّفْكيرِ الهادِئِ العَميقِ في حَلِّ المُشْكلاتِ، واسْتِنباطِ المَعاني مِن التَّجارِبِ الحَيَّةِ العَمليَّةِ، وليس مِن الفَلسفةِ النَّظَريَّةِ.

4- الرَّسائل:

تُعَدُّ الرَّسائِلُ فَنًّا مِن الفُنونِ النَّثْرِيَّةِ الأدَبيَّةِ الَّتي تَعْتمِدُ على الكِتابةِ والقَلَمِ بَدَلًا مِن المُشافَهةِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ العَرَبَ قبْلَ الإسْلامِ كانوا يَعْرِفون الكِتابةَ، لكنَّها لم تكنْ فاشِيةً فيهم، ولم يكنْ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنهم يَعرِفُ القِراءةَ والكِتابةَ؛ ولِهذا اعْتَمدوا على الحِفْظِ والرِّوايةِ، وبفَضْلِهما انْتَقلَتْ أشْعارُهم وأخْبارُهم جيلًا بعْدَ جيلٍ، حتَّى دوَّنَ العُلَماءُ ذلك في كُتُبِهم.

وتَرجِعُ قِلَّةُ انْتِشارِ الكِتابةِ بيْنَ العَربِ إلى قِلَّةِ أدَواتِها، وصُعوبةِ الاعْتِمادِ عليها في الحِفْظِ والتَّدْوينِ؛ فقدْ كانوا يَكتُبون على الجُلودِ، ويُسمُّونَها: الرَّقَّ والأديمَ والقَضيمَ، وعلى القُماشِ مِن الحَريرِ أو القُطْنِ، وعلى جَريدِ النَّخْلِ، وهو العَسيبُ أو السَّعَفُ، وعلى العِظامِ مِن الكَتِفِ والأضْلاعِ، وعلى الحِجارةِ والصُّخورِ، وهو ما يُعرَفُ بالنَّقْشِ، أمَّا الأداةُ الَّتي يَكتُبون بها فهي القَلَمُ والدَّواةُ، والمِدادُ (الحِبْرُ).

ولهذه الأسْبابِ فإنَّ الفُنونَ النَّثْريَّةَ المُعْتمِدةَ على الكِتابةِ لم يُكتَبْ لها الانْتِشارُ في العَصْرِ الجاهِليِّ؛ فقدْ كانوا يَسْتعمِلونَ الرَّسائِلَ الشَّفهيَّةَ بَدَلًا مِن المُكاتَباتِ؛ فيُرسِلُ الرَّجُلُ أحَدَ أبْنائِه أو غِلْمانِه أو نَحْوَهم بمَضْمونِ رِسالتِه إلى الشَّخْصِ المُرادِ إبْلاغُه بذلك، كما أرْسَلَ الحارِثُ بنُ عبَّادٍ البَكْريُّ ابنَه إلى المُهَلْهِلِ بنِ رَبيعةَ التَّغْلبيِّ.

وأمَّا الرَّسائِلُ المَكْتوبةُ فقدْ عرَفَها العَربُ قَديمًا، ورُبَّما أقْدَمُ ما وَرَدَ إلينا مِنها كِتابُ عَمْرِو بنِ هِنْدٍ معَ المُتَلمِّسِ إلى عامِلِه بالبَحْرَينِ، وهو: "باسْمِك اللَّهُمَّ، مِن عَمْرِو بنِ هِنْدٍ إلى المُكَعْبَرِ، إذا أتاك كِتابي هذا معَ المُتَلمِّسِ فاقْطَعْ يَدَيه ورِجْلَيه، وادْفِنْه حَيًّا".

إلَّا أنَّ هذه الرِّسالةَ ليسَتْ رِسالةً أدَبيَّةً تَنْتَمي إلى الفَنِّ النَّثْريِّ، وإنَّما رِسالةٌ تَتَضمَّنُ غَرَضًا سِياسيًّا، وما مِن شَكٍّ أنَّ العَربَ اسْتَعْمَلوا تلك الرَّسائِلَ، كما ورَدَ إلينا مِن هذه الرَّسائِلِ الشَّيءُ الكَثيرُ، كمُكاتَباتِ النُّعْمانِ بنِ المُنذِرِ لكِسْرى، ونَحْوِها.

أمَّا الرَّسائِلُ الأدَبيَّةُ الَّتي تَسْتوفي شُروطَ الكِتابةِ الأدَبيَّةِ فإنَّ العُلَماءَ قد اخْتَلفوا في مَعْرفةِ العَرَبِ بها في

الجاهِليَّةِ؛ فمِنهم مَن أنْكَرَ أن يكونَ العَرَبُ قد اسْتَخْدموا الكِتابةَ وتَطَوَّرتْ عنْدَهم هذا التَّطوُّرَ، للدَّرَجةِ الَّتي يُعْتَبرُ فيها النَّصُّ نَصًّا أدَبيًّا نَثْريًّا بَليغًا.

يقولُ الدُّكتورُ شَوْقي ضيف: (الكِتابة كانَتْ مَعْروفةً في العَصْرِ الجاهِليِّ، ولكنَّ هذه المَعْرِفةَ شيءٌ، وأنَّ العَربَ أحْدَثوا بها آثارًا فَنِّيَّةً مَكْتوبةً شَيءٌ آخَرُ، هُمْ عَرَفوها ولكنَّها مَعْرفةٌ مَحْدودةٌ، فلم يَكتُبوا بها كُتُبًا ولا قِصَصًا ولا رَسائِلَ أدَبيَّةً، وإنَّما كتَبوا بها بعضَ أغْراضٍ تِجاريَّةٍ وأخرى سِياسيَّةٍ... ولكنَّهم لم يَخرُجوا بها إلى أغْراضٍ أدَبيَّةٍ خالِصةٍ تُتيحُ لنا أن نَزعُمَ أنَّه وُجِدَ عنْدَهم لَونٌ مِن ألْوانِ الكِتابةِ الفَنِّيَّةِ، ومِن المُؤَكَّدِ أنَّ الكِتابةَ لم تكنْ حينَئذٍ تُؤدِّي بجانِبِ أغْراضِها السِّياسيَّةِ والتِّجاريَّةِ أغْراضًا أدَبيَّةً أو فَنِّيَّةً مِن تَجْويدٍ وتَحْبيرٍ؛ إذ لم تكنْ أكْثَرَ مِن كِتابةٍ ساذَجةٍ أدَّتْ أغْراضَها الخاصَّةَ في عَصْرِها، وانْتَهَتْ بانْتِهاءِ هذا الغَرَضِ).

إلَّا أنَّه قد وَرَدَ بعضُ الرَّسائِلِ الأدَبيَّةِ عن ذلك العَصْرِ، وإن كانَ هذا الفَريقُ يُنكِرُ ثُبوتَها لأصْحابِها، فإنَّ فَريقًا آخَرَ أقَرَّ بمَعْرفةِ العَربِ لذلك النَّوْعِ مِن الكِتابةِ الأدَبيَّةِ، واعْتَقَدَ صِحَّةَ نَسَبِ تلك الرَّسائِلِ للجاهِليِّينَ، ومِنها رِسالةُ المُنذِرِ الأكْبَرِ إلى أَنوشِروانَ، وكِتابُ النُّعْمانِ بنِ المُنذِرِ إلى كِسْرى.

سِماتُ الرَّسائِلِ وخَصائِصُها:

1- الإيجازُ والاخْتِصارُ غيْرُ المُخِلِّ.

2- تَرْكُ المُقدِّماتِ والخَواتيمِ ونَحْوِها، والاقْتِصارُ على التَّسْميةِ.

3- عَدَمُ تكلُّفِ السَّجْعِ، والابْتِعادُ عن المُحسِّناتِ البَديعيَّةِ.

4- فَصاحةُ الأُسلوبِ، والبُعْدُ عن الكَلامِ الوَحْشيِّ الغَريبِ.

5- الحِكَمُ والأمْثالُ:

تَعدَّدَتِ المَعاني اللُّغويَّةُ لكَلِمةِ "الحِكْمةِ"؛ فقيلَ: العَدْلُ، وقيلَ: الإتْقانُ، وقيلَ: الحِلمُ، وقيلَ: كلُّ ما مَنَعَ مِن الجَهْلِ وزَجَرَ عن القَبيحِ، وبِهذا سُمِّيَ الحاكِمُ؛ لأنَّه يَمنَعُ الظُّلْمَ، ومِنه الحَديثُ: (إنَّ مِن الشِّعْرِ حِكْمة)؛ لأنَّه يَمنَعُ مِن الجَهْلِ ويَنْهى عنه. وقيلَ: الدَّعوةُ إلى الخَيْرِ والرُّشْدِ ومَحامِدِ الأخْلاقِ، وقيلَ:

إصابةُ القَوْلِ مِن غيْرِ نُبوءةٍ، وقيلَ غيْرُ ذلك.

والحِكْمةُ اصْطِلاحًا: قَولٌ بَليغٌ موجَزٌ يُحاوِلُ سَنَّ نُظُمٍ خُلُقيَّةٍ يَتَّبِعُها النَّاسُ فيما يَرْضونَه مِن خِصالٍ وسُلوكٍ، أو ما يُنْكِرونَه مِن أفْعالٍ وعاداتٍ، تُصاغُ في بَيْتِ شِعْرٍ أو مَثَلٍ أو عِبارةٍ أنيقةٍ موجَزةٍ غَزيرةِ المَعنى، ذاتِ دَلالاتٍ بَعيدةٍ، تُؤدِّي ما يُؤدِّيه المَثَلُ، إلَّا أنَّها لم تَشِعْ في الجُمْهورِ، ولم تَجْرِ بيْنَ الخَواصِّ.

فالحِكْمةُ إذَنْ تَتَميَّزُ بأنَّها تَصدُرُ عن عَقْلٍ واعٍ وتَجرِبةٍ عَميقةٍ وخِبرةٍ طَويلةٍ، تَخرُجُ بشَكْلٍ فَنِّيٍّ أدَبيٍّ، يُراعى فيها ما يُراعى في سائِرِ الفُنونِ الأدَبيَّةِ مِن البَلاغةِ والفَصاحةِ، وتَعْتمِدُ على الإيجازِ اعْتِمادًا كَبيرًا، تُخاطِبُ العَقْلَ والعاطِفةَ معًا.

حُكَماءُ الجاهِليَّةِ:

اشْتَهَرَ كَثيرٌ مِن الحُكَماءِ في الجاهِليَّةِ، الَّذين كانوا يَخطُبون في النَّاسِ، ويَسْتشيرُهم النَّاسُ في دَقائِقِ الأمورِ وعَظائِمِها، ويَلْجؤونَ إليهم في المُفاخَرةِ والمُنافَرةِ، وكانوا يَتَميَّزونَ بأصالةِ الرَّأيِ ودِقَّةِ التَّفْكيرِ، والنَّظَرِ الصَّائِبِ والفَهْمِ الصَّحيحِ للحَياةِ وأحْداثِها.

فمِنهم: لُقمانُ بنُ عادٍ، ولُقَيمُ بنُ لُقمانَ، ومُجاشِعُ بنُ دارِمٍ، وسَليطُ بنُ كَلْبِ بنِ يَرْبوعٍ، ولُؤَيُّ بنُ غالِبٍ، وقُسُّ بنُ ساعِدةَ، وهاشِمُ بنُ عبْدِ مَنافٍ، وقُصَيُّ بنُ كِلابٍ، وأكْثَمُ بنُ صَيْفيٍّ، وهَرِمُ بنُ قُطْبَةَ، وعامِرُ بنُ الظَّرِبِ، وعبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ، وأسَعْدُ بنُ زُرارةَ، وغيْرُهم.

ومِن أشْهَرِ الحِكَمِ الجاهِليَّةِ: قول عامِرُ بنُ الظَّرِبِ: مَن طَلَبَ شيئًا وَجدَه، وقول أكْثَمُ بنُ صَيْفيٍّ: تَباعَدوا في الدِّيارِ تَقارَبوا في المَودَّةِ، وقوله: ليس مِن العَدْلِ سُرْعةُ العَذْلِ، وقوله أيضًا: لا تَطمَعْ في كلِّ ما تَسمَعْ، وقوله كذلك: وَيْلٌ للشَّجِيِّ مِن الخَلِيِّ. وممَّا اشْتَهرَ مِن الحِكْمةِ دونَ مَعْرفةِ قائِلِها: رُبَّ أخٍ لم تَلِدْه أمُّك، رِضا النَّاسِ غايةٌ لا تُدرَكُ، مِن مَأمَنِه يُؤْتى الحَذِرُ.

كما شاعَتِ الحِكْمةُ في شِعْرِ الجاهِليِّينَ كذلك، خاصَّةً في شِعْرِ أمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ، وزُهَيْر، وغيْرِهما.

الأمْثالُ:

قالَ المُبَرِّدُ: المَثَلُ مَأخوذٌ مِن المِثالِ، وهو: قَوْلٌ سائِرٌ يُشَبَّهُ به حالُ الثَّاني بالأوَّلِ .

قالَ المَرْزوقيُّ في شَرْحِ الفَصيحِ: المَثَلُ جُملةٌ مِن القَوْلِ مُقْتَضَبةٌ مِن أصْلِها، تَتَّسِمُ بالقَبولِ، وتَشْتهِرُ بالتَّداوُلِ، فتُنقَلُ عمَّا ورَدَتْ فيه إلى كلِّ ما يَصِحُّ قَصْدُه بها مِن غيْرِ تَغْييرٍ يَلحَقُها في لَفْظها، وعمَّا يُوجِبُه الظَّاهِرُ إلى أشْباهِه مِن المَعاني؛ فلِذلك تُضْرَبُ وإن جُهِلَتْ أسْبابُها الَّتي خُرِّجَتْ عليها.

وفي تَعْريفٍ موجَزٍ مُبسَّطٍ يَذكُرُ هاشِم منَّاع أنَّ المَثَلَ: قَوْلٌ شائِعٌ بيْنَ النَّاسِ، يُشَبِّهونَ به حالةً مُعاصِرةً بحالةٍ قَديمةٍ أُطلِقَ فيها هذا المَثَلُ.

ويَتَّضِحُ مِن تلك التَّعْريفاتِ أنَّ أصْلَ المَثَلِ قِصَّةٌ قيلَ فيها قَوْلٌ مُعيَّنٌ، فشاعَ هذا القَوْلُ حتَّى صارَ يُضرَبُ في كلِّ قِصَّةٍ تُشبِهُ القِصَّةَ الأُولى.

وقد أكْثَرَ العَربُ مِن اسْتِعمالِ الأمْثالِ لشُهْرتِها وإيجازِها، معَ ما فيها مِن بَلاغةٍ وتَصْويرٍ؛ لِهذا فإنَّ التارِكَ لمَعْرفةِ الأمْثالِ مُفَرِّطٌ في ثَرْوةٍ لُغويَّةٍ وبَلاغيَّةٍ وأدَبيَّةٍ كَبيرةٍ.

وتُعَدُّ الأمْثالُ أصْدَقَ شيءٍ يَتحدَّثُ عن أخْلاقِ الأمَّةِ وتَفْكيرِها وعَقْليَّتِها وتَقاليدِها وعاداتِها، كما أنَّه يُصَوِّرُ المُجْتمَعَ وحَياتَه وشُعورَه أتَمَّ التَّصْويرِ، فهي مِرآةٌ للحَياةِ الاجْتِماعيَّةِ والعَقْليَّةِ والسِّياسيَّةِ والاقْتِصاديَّةِ والدِّينيَّةِ واللُّغويَّةِ، وهي في ذلك أقْوى دَلالةً مِن الشِّعْرِ؛ لأنَّ الشِّعْرَ لُغةُ طائِفةٍ خاصَّةٍ مِن النَّاسِ قد حَباهم اللهُ مَوْهِبةً انْفَردوا بها عن غيْرِهم، أمَّا الأمْثالُ فلُغةُ جَميعِ الطَّبَقاتِ.

وقد جَمَعَ كَثيرٌ مِن العُلَماءِ أمْثالَ العَربِ ودوَّنوها في كُتُبٍ خَشيةَ الضَّياعِ، ومِن ذلك: كِتابُ الأمْثالِ للمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ، والأمْثالُ لأبي عُبَيْدٍ القاسِمِ بنِ سَلَّامٍ، وجَمْهَرةُ الأمْثالِ لأبي هِلالٍ العَسْكريِّ، وكِتابُ مَجمَعِ الأمْثالِ للمَيْدانيِّ.

ومِن أشْهَرِ الأمْثالِ: الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ، رَجَعَ بخُفَّيْ حُنَينٍ، اليَوْمَ خَمْرٌ وغَدًا أمْر.

بيْنَ الحِكَمِ والأمْثالِ:

ممَّا سَبَقَ يَتَّضِحُ أنَّ بيْنَ المَثَلِ والحِكْمةِ أكْثَرَ مِن فَرْقٍ؛ مِنها:

-أصْلُ المَثَلِ قِصَّةٌ مَعْروفةٌ، سواءٌ كانَتْ حَقيقيَّةً أم خَياليَّةً، فإذا جَهِلَ النَّاسُ القِصَّةَ لم يَصِرِ المَثَلُ مَثَلًا، ولم يَفهَمِ المُخاطَبُ المُرادَ به.

-الحِكْمةُ تَصدُرُ عن إنْسانٍ حَكيمٍ ذي تَجرِبةٍ، بخِلافِ المَثَلِ؛ فإنَّه يَصدُرُ عن عامَّةِ النَّاسِ.

-المَثَلُ أكْثَرُ شُيوعًا مِن الحِكْمةِ.

خَصائِصُ الحِكَمِ والأمْثالِ:

على الرَّغْمِ مِن الفُروقِ بيْنَ الحِكْمةِ والمَثَلِ، فإنَّهما يَتَّفقانِ في عِدَّةِ خَصائِصَ؛ مِنها:

-الإيجازُ والاخْتِصارُ.

-قُوَّةُ المَعنى ونُدرتُه.

-سُهولةُ تَداوُلِ المَعنى وانْتِشارِه.

-الحِكْمةُ والمَثَلُ يَعكِسانِ أخْلاقَ الأمَّةِ وعاداتِها وتقاليدَها.

-الاعْتِمادُ على المَعنى والفِكرةِ دونَ الخَيالِ والعاطِفةِ.

الفصل الثامن والعشرون: خَصائِصُ النَّثْرِ الجاهِليِّ

يَتَّسِمُ النَّثْرُ الجاهِليُّ بعِدَّةِ خَصائِصَ؛ مِنها ما هو مَعْنَويٌّ، ومِنها ما هو لَفْظيٌّ.

أوَّلًا: الخَصائِصُ المَعْنويَّةُ:

1- تَوجُّهُ النَّثْرِ إلى نَواحٍ خُلُقيَّةٍ وتَهْذيبيَّةٍ، كالمَيلِ إلى الخَيْرِ والإصْلاحِ في الوَصايا وبعضِ الخُطَبِ والحِكَمِ.

2- وَحْدةُ المَوْضوعِ، وعَدَمُ الانْتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ.

3- تَوْظيفُ الشِّعْرِ في النُّصوصِ النَّثْريَّةِ.

4- اعْتِمادُ النَّثْرِ الفَنِّيِّ على الارْتِجالِ وحُضورِ الذِّهْنِ لا الإعْدادِ السابِقِ.

5- كَثْرةُ اسْتِخدامِ الحُجَجِ والبَراهينِ العَقْليَّةِ.

6- الاعْتِمادُ على الحِكَمِ والأمْثالِ.

7- سُهولةُ المَعاني ووُضوحُها.

8- تَمْثيلُ الحَياةِ الجاهِليَّةِ تَمْثيلًا صادِقًا بلا تَزْييفٍ أو مُبالَغةٍ أو كَذِبٍ، كما أنَّه يُصوِّرُ الواقِعَ وطَبيعةَ الحَياةِ، والعاداتِ والتَّقاليدَ.

ثانيًا: الخَصائِصُ اللَّفْظيَّةُ:

1. الاعْتِمادُ على الإيجازِ مِن غيْرِ إخْلالٍ، وعَدَمُ اللُّجوءِ إلى الإطْنابِ.

2. انْقِطاعُ الصِّلةِ بيْنَ الجُملةِ والأُخْرى، وعَدَمُ الرَّبْطِ المَنطِقيِّ بيْنَ الفِقْراتِ.

3. غَرابةُ بعضِ الألْفاظِ.

4. عَدَمُ الاعْتِمادِ على المُحسِّناتِ البَديعيَّةِ.

5. مَجيءُ السَّجْعِ قَليلًا في كَلامِهم، طَبيعيًّا مِن غيْرِ تَكلُّفٍ أو تَعمُّدٍ.

6. قِصَرُ الجُمَلِ وتُكوُّنُها مِن بِضْعِ كَلِماتٍ.

7. الطَّبْعُ وعَدَمُ التَّكلُّفِ.

الفصل التاسع والعشرون: أَثَرُ الإسْلامِ في الشِّعْرِ

عَرَفَ العَربُ قبْلَ الإسْلامِ فُنونًا وألْوانًا مِن الحَقِّ والباطِلِ؛ حيثُ عُرِفَتِ الجاهِليَّةُ ببُعْدِها عن الدِّينِ، وسَفْكِ الدِّماءِ، وعِبادةِ الأوْثانِ، واسْتِباحةِ الفُروجِ، والعُكوفِ على الخُمورِ، واسْتِحلالِ أكْلِ الأمْوالِ بالباطِلِ، كما ألِفَتْ بعضًا مِن صَنائعِ المَعْروفِ، كإكْرامِ الضِّيفانِ، والوَفاءِ بالعُهودِ، ومُراعاةِ حُقوقِ الجارِ، ونَحْوِ ذلك. فحَضَّ الإسْلامُ على تلك الشِّيَمِ الحَسَنةِ، وأقرَّهم عليها، واسْتَحسَنَ ذلك مِنهم، ونَهاهم عنِ الرَّذائِلِ والقَبائِحِ والفُجورِ وسَيِّئِ الأخْلاقِ.

كما هذَّبَ الإسلامُ بعضًا مِن الأفْعالِ الَّتي اخْتَلطَ الحَلالُ فيها بالحَرامِ، كالنِّكاحِ والبُيوعِ وغيْرِ ذلك، فأقَرَّ ما فيها مِن حَلالٍ، ونَهى عمَّا قارَفَها مِن الحَرامِ، فأحَلَّ البَيْعَ في أصْلِه، وحَرَّمَ ما يَكتَنِفُه مِن الرِّبا والعِينةِ والغَرَرِ، وحَضَّ على النِّكاحِ، ونَهى عمَّا يُداخِلُه مِن الشِّغارِ والمُحلِّلِ ونَحْوِ ذلك.

وكذلك الشِّعْرُ؛ فإنَّ الإسْلامَ لم يَنْهَ الشُّعَراءَ عن نَظْمِ الشِّعْرِ، ولا مَنَعَ الرُّواةَ مِن إنْشادِ الشِّعْرِ ورِوايتِه، بلْ كانَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَحُضُّ على الأمْرَينِ، وقد كانَ يَسْتنشِدُ أصْحابَه مِن أشْعارِ الجاهِليِّينَ كَثيرًا، قالَ الشَّريدُ بنُ سُوَيدٍ الثَّقَفيُّ: (اسْتَنشَدَني رسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأنْشَدْتُه بيتًا، فقال: هِيهِ. ثم أنْشَدْتُه بيتًا، فقال: هِيهِ. حتى أنْشَدْتُه مائةَ بيتٍ).

وقالَ جابرُ بنُ سَمُرةَ: (جالَسْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ أَكْثَرَ مِن مِئةِ مرَّةٍ، فكانَ أصْحابُه يَتَناشَدونَ الشِّعر ويَتَذاكرون أشياءَ مِن أمْرِ الجاهِليَّةِ، وهو ساكتٌ فربما تبَسَّم معهم).

غيْرَ أنَّ الشِّعْرَ حينَئذٍ كانَ مُتَشبِّعًا بأخْلاقِ الجاهِليِّينَ وعَصبيَّتِهم للقَبيلةِ؛ فكانَ الشَّاعِرُ رُبَّما أجَّجَ نيرانَ الحَرْبِ بقَصيدةٍ يقولُها أو ببَيْتٍ يُنشِدُه، فَضْلًا عن انْحِطاطِ الشِّعْرِ في أواخِرِ العَصْرِ الجاهِليِّ بحيثُ صارَ وَسيلةً للتَّكسُّبِ، فصارَ الشَّاعِرُ يَمدَحُ الرَّجُلَ بما ليس فيه، ويَكذِبُ في

شِعْرِه، فَضْلًا عن انْتِشارِ الغَزَلِ في أشْعارِهم، والتَّشْبيبِ بالنِّساءِ وذِكْرِ أوْصافِهِنَّ ومَفاتِنِهنَّ، بما يُخالِفُ شريعة الإسلام.

اسْتَوْعبَ الإسْلامُ تلك الأمورَ، فأباحَ مِن الشِّعْرِ ما خالَفَ تلك الأمورَ الَّتي جاءَ الإسْلامُ فهَدَمَها، فلم يَرَ بأسًا بأشْعارِ الحِكْمةِ والرِّثاءِ والحَماسةِ، ومَنَعَ ما يُخالِفُ أصْلَ الدِّينِ مِن التَّغزُّلِ والتَّشْبيبِ، وهذَّبَ بعضَ ما فيه شَوْبٌ مِن الجاهِليَّةِ، كالفَخْرِ؛ إذ جَعَلَ الإسْلامُ الفَخْرَ اللَّائِقَ بالشَّاعِرِ المُسلِمِ هو الفَخْرَ بالدِّينِ لا الفَخْرَ بالآباءِ والأنْسابِ، كما أباحَ المَدْحَ إذا كانَ صادِرًا عن عاطِفةٍ صادِقةٍ، شَريطةَ أن يُمدَحَ الرَّجُلُ بما فيه.

ومِن ناحِيةٍ أخرى فإنَّ القُرآنَ -وهو المُعْجِزةُ البَلاغيَّةُ- قد أفادَ الشُّعَراءَ كَثيرًا مِن جِهةِ نَظْمِه وألْفاظِه ومَعانيه، فهو الَّذي أعْيا البُلَغاءَ أن يأتوا بسورةٍ مِثلِه، وأعْجَزَ الشُّعَراءَ عن مُجاراةِ بعضِه. فاسْتَعانَ الشُّعَراءُ بألْفاظِ القُرآنِ، كما أفادوا مِنه في سُهولةِ ألْفاظِه ووُضوحِ مَعانيه، فجاءَتْ أشْعارُهم تُحاكي القُرآنَ في نَظْمِه وسَلاستِه.

وبذلك تَنفَّسَتْ رُوحُ الإسْلامِ في أبْياتِهم، وانْعَكسَ تَعْليمُ الرَّسولِ لهم في قَوافيهم، ففَرَّغَ الشُّعَراءُ طاقتَهم الشِّعْريَّةَ في خِدمةِ الإسْلامِ والدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، ووَصْفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وذِكْرِ شَمائِله، فكانَ حَسَّانُ بنُ ثابتٍ يَحُثُّ المُسلِمينَ على القِتالِ، ويُذَكِّرُهم بوَعْدِ اللهِ لهم، ويَهْجو المُشرِكينَ، ويَفرْي أديمَهم بلِسانِه، ويُمجِّدُ الإسْلامَ بقَوْلِه، ويَدفَعُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنفْسِه وعِرْضِه، ويَبذُلُ كلَّ ما يَستْطيعُ بَذْلَه، ولا يَخْشى أحَدًا في اللهِ.

والقُرآنُ الكَريمُ قد هذَّبَ الطَّبائِعَ وحَسَّنَ الأخْلاقَ، فلم يَتَفحَّشِ الشُّعَراءُ بالقَوْلِ، ولم يأتِ شِعْرُهم كاشِفًا للسَّوْءاتِ مُظهِرًا للعَوْراتِ، وإن هَجا أحَدُهم أحَدًا لم يكنِ الهِجاءُ مُقذِعًا يَتناوَلُ العِرْضَ والأهْلَ، بلْ كانوا أعفَّاءَ في هِجائِهم وفي شِعرِهم كلِّه، كما هذَّبَ القُرآنُ الكَلِماتِ؛ فابْتَعدَ الشُّعَراءُ عن الكَلِماتِ الوَحْشيَّةِ الغَريبةِ لمَّا رأَوا ألْفاظَ القُرآنِ سَهْلةً مُيسَّرةً يَفهَمُها القَريبُ

والبَعيدُ، والعالِمُ والجاهِلُ، وهذَّبَ أغْراضَهم فتَلاشَتْ عنِ الشِّعْرِ بعضُ الأغْراضِ الجاهِلِيَّةِ والمَوْضوعاتِ المُسْتخدَمةِ في الزَّمَنِ الأوَّلِ، مِثْلُ ذِكْرِ الخَمْرِ، والتَّفاخُرِ بالآباءِ، والجَهْرِ بالفُحْشِ والفُجورِ، وهذَّبَ مَعانيَهم فجاءَتْ المَعاني قَريبةَ المَأخَذِ سَهْلةَ المُتَناوَلِ خالِيةً مِن الإغْرابِ والتَّنافُرِ المَعْنويِّ.

والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ أفْصَحَ النَّاسِ وأقْدَرَهم على البَيانِ، وحَباه اللهُ جَوامِعَ الكَلِمِ فكانَ يَنطِقُ بالألْفاظِ القَليلةِ الَّتي تَحمِلُ بيْنَ طِيَّاتِها مَعانيَ جَمَّةً، وجاءَتْ ألْفاظُه ومَعانيه سَهْلةً، مَيْسورةً، قَليلةَ المَباني، كَثيرةَ المَعاني، خالِيةً مِن الإغْرابِ ومِن وَحْشيِّ الكَلامِ، وجاءَتْ مَعانيه مُحْكَمةَ النَّسْجِ، تامَّةَ السَّبْكِ كأنَّها التِّيجانُ للرُّؤوسِ، والرَّاحةُ للنُّفوسِ، فدارَ الأُدَباءُ والشُّعَراءُ حَوْلَ كَلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَعونَ حِلَقَه، ويَرْتَشفونَ ضَرَبَه، ويَتَحسَّسونَ سُبُلَه، فجاءَتْ مَعانيهم مُسْتمَدَّةً مِن مَعاني الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وألْفاظُهم تُحاكي ألْفاظَه، وهكذا هذَّبَ القُرآنُ والسُّنَّةُ الشِّعْرَ وأضْفَيا عليه روحَ الإسْلامِ، ونَقَلا الشُّعَراءَ مِن التِّيهِ والعَمى إلى الحَقِّ والرُّشْدِ.

الفصل الثلاثون: مَوقِفُ الإسْلامِ مِن الشِّعْرِ

ذَمَّ بعضُ النَّاسِ الشِّعْرَ كلَّه وذَمُّوا أهْلَه، ورَمَوهم بما هُمْ مِنه بَراءٌ، وتَمَسَّكوا ببعضِ الأدِلَّةِ الَّتي حَملوها على غيْرِ وَجْهِها، فقالوا: إنَّ اللهَ تَعالى قد ذَمَّ الشُّعَراءَ وذَمَّ مَن يَتَّبِعُهم مِن النَّاسِ فقالَ تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ).

ونزَّهَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أن يقولَ شِعْرًا، فقالَ: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)، فدَلَّ ذلك على تَنَقُّصِ الشِّعْرِ وقائِلِه.

واسْتَدلُّوا أيضًا بقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (لأنْ يَمْتلِئَ جَوْفُ أحَدِكم قَيْحًا حتَّى يَرِيَه خيْرٌ له مِن أن يَمْتلِئَ شِعْرًا)، وهذا دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد ذَمَّ الشِّعْرَ، وذَمَّ مَن يَحفَظُه ويَشغَلُ به وَقْتَه.

والأمْرُ بخِلافِ ذلك؛ فإنَّ الإسلامَ ما حرَّمَ الشِّعْرَ ولا عابَه، بلْ كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَسْتنشِدُ الشِّعْرَ، وكانَ أصْحابُه رُواةً للشِّعْرِ، وكانَتْ عائَشةُ رَضيَ اللهَ عنها راوِيةً لشِعْرِ لَبيدٍ، وما برِحَ الصَّحابةُ والتَّابعونَ يَسْتدِلُّونَ على تَفْسيرِ القُرآنِ بدَواوينِ الشِّعْرِ.

أمَّا اسْتِدلالُهم بالقُرآنِ والحَديثِ فإنَّه قاصِرٌ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى لم يَعِبِ الشُّعَراءَ مُطلَقًا، وإنَّما عابَ على المُشْرِكينَ، بدَليلِ ما بعْدَ ذلك مِن الآياتِ؛ قالَ تَعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).

وقد كانَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شُعَراءُ يُدافِعونَ عنه ويَهْجونَ المُشْرِكين، ولمَّا دخَلَ مَكَّةَ في عُمْرةِ القَضاءِ، كانَ عبْدُ اللهِ بنُ رَواحةَ يُنشِدُ بيْنَ يَدَيه:

خَلُّوا بَني الْكُفَّارِ عَنْ سَبيلِهِ ... اليَوْمَ نَضْرِبْكم على تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهامَ عن مَقيلِهِ ... وَيُذهِلُ الخَليلَ عن خَليلِهِ

فقالَ له عُمَرُ: يا بنَ رَواحةَ، بيْنَ يَدَيْ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفي حَرَمِ اللهِ عزَّ وجَلَّ تقولُ الشِّعْرَ؟! قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (خَلِّ عنه، فلَهو أسرَعُ فيهم مِن نَضْحِ النَّبْلِ).

وكانَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ لحسَّانَ بنِ ثابتٍ: (اهْجُهم -أو هاجِهم- وجِبْريلُ معَك).

وأمَّا الاسْتِدلالُ بأنَّ اللهَ نزَّهَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الشِّعْرِ، وأنَّ ذلك دَليلٌ على قُبْحِ الشِّعْرِ وكَراهتِه وانْحِطاطِ مَنزِلتِه؛ فغيْرُ صَحيحٍ؛ إذِ الآيةُ في مَعرِضِ الانْتِصارِ للقُرآنِ والدِّفاعِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا اتَّهمَه به المُشْرِكونَ، حينَ قالوا: هو شاعِرٌ، فذَكَّرَهم اللهُ أنَّه لم يكنْ لِيقولَ الشِّعْرَ يَوْمًا، وما أقامَ قافِيةً يَوْمًا ما، فَضْلًا عن أنَّه أمِيٌّ لا يَقرَأُ ولا يَكتُبُ، فأنَّى لمِثلِه أن يُؤلِّفَ مِثلَ هذا القُرآنِ؟!

وأمَّا اسْتِدلالُهم بقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (لأنْ يَمْتلِئَ جَوْفُ أحَدِكم قَيْحًا حتَّى يَرِيَه خيْرٌ له مِن أن يَمْتلِئَ شِعْرًا)، فإنَّما هو فيمَن غلَبَ الشِّعْرُ على قَلْبِه، ومَلَكَ نفْسَه حتَّى شَغَلَه عن دينِه وإقامةِ فُروضِه، ومَنَعَه مِن ذِكْرِ اللهِ تَعالى وتِلاوةِ القُرآنِ، وأمَّا غيْرُ ذلك ممَّن يَتَّخِذُ الشِّعْرَ أدَبًا وفُكاهةً وإقامةَ مُروءةٍ، فلا جُناحَ عليه.

الفصل الحادي والثلاثون: القَوْلُ بضَعْفِ الشِّعْرِ في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ

ذَكَرَ بعضُ الباحِثينَ أنَّ الشِّعْرَ أصابَه الضَّعْفُ والوَهْنُ والخُمولُ عنْدَ مَجيءِ الإسْلامِ، وأنَّ المُسْلِمينَ انْصَرفوا عنِ الشِّعْرِ وتَرَكوا رِوايتَه والعِنايةَ به حتَّى أصابَه الوَهْنُ والضَّعْفُ، وأنَّ الشُّعَراءَ أهْمَلوا الشِّعْرَ؛ فمِنهم مَن صارَ مُقِلًّا، ومِنهم مَن تَرَكَ الشِّعْرَ جُمْلةً.

واتَّكَؤوا في ذلك على قَوْلِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: "كانَ الشِّعْرُ عِلمَ قَوْمٍ لم يكنْ لهم عِلمٌ أصَحُّ مِنه"، وأنَّ المُسْلِمينَ في بدايةِ الأمْرِ كانوا في شُغْلٍ عن الشِّعْرِ ورِوايتِه؛ قالَ ابنُ سَلَّامٍ: "فجاءَ الإسْلامُ فتَشاغلَتْ عنه العَربُ، وتَشاغَلوا بالجِهادِ وغَزْوِ فارِسَ والرُّومِ، ولَهَتْ عنِ الشِّعْرِ ورِوايتِه، فلمَّا كَثُرَ الإسْلامُ وجاءَتِ الفُتوحُ واطْمأنَّتِ العَربُ بالأمْصارِ راجَعوا رِوايةَ الشِّعْرِ، فلم يَؤولوا إلى دِيوانٍ مُدَوَّنٍ ولا كِتابٍ مَكْتوبٍ، وألَّفوا ذلك وقد هلَكَ مِن العَربِ مَن هلَكَ بالمَوْتِ والقَتْلِ، فحَفِظوا أقَلَّ ذلك وذَهَبَ عليهم مِنه كَثيرٌ".

كما عضَّدوا زَعْمَهم ذلك بأنَّ الإسْلامَ قد حَطَّ مِن شأنِ الشِّعْرِ والشُّعَراءِ، ووَصَفَهم بالغَوايةِ والانْحِرافِ عنِ الجادَّةِ، ويقولونَ: إنَّ الإسْلامَ قد حَظَرَ بعضَ الأغْراضِ الَّتي تَقدَحُ القَرائِحَ وتُثيرُ المَلَكةَ وتَجعَلُ الشِّعْرَ مُتأجِّجًا يَلتَهِبُ الْتِهابًا، كذِكْرِ الخَمْرِ، والتَّفَحُّشِ بالغَزَلِ، وذِكْرِ النِّساءِ، والحَميَّةِ والعَصَبيَّةِ.

كما أنَّ الإسْلامَ قد مَنَعَ بعضًا مِن بَواعِثِ الشِّعْرِ الَّتي كانَتْ تُعينُ الشَّاعِرَ على تَحْسينِ شِعْرِه وتَجْويدِه، كالعَطايا والهِباتِ والمُكافآتِ؛ فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (إذا رَأيْتُم المَدَّاحينَ فاحْثوا في وُجوهِهم التُّرابَ)، وكانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَزجُرُ النَّاسَ عن المَدائِحِ الكاذِبةِ.

ولأنَّ الشِّعْرَ بابُه الكَذِبُ ومِحْرابُه الشَّرُّ، فلِذلك نَبَغَ فيه الجاهِليُّونَ وأجادوا، ومِن كَلامِهم: "أعْذَبُ الشِّعْرِ أكْذَبُه"، فلمَّا أسْلَمَ الشُّعَراءُ وكَفُّوا ألْسِنتَهم عنِ الشَّرِّ وأقاموها في مَحاريبِ الخيْرِ، نزَلَ شِعْرُهم هابِطًا وقَلَّتْ جَودتُه، وقد قيلَ لحَسَّانَ: لانَ شِعْرُك -أو هَرِمَ شِعْرُك- في الإسْلامِ يا أبا الحُسامِ، فقالَ:

يا ابنَ أخي، إنَّ الإسْلامَ يَحجُزُ عن الكَذِبِ، وإنَّ الشِّعْرَ يَزينُه الكَذِبُ.

يقولُ الأصْمَعيُّ: (الشِّعْرُ نَكَدٌ بابُه الشَّرُّ، فإذا دَخَلَ في الخَيْرِ ضَعُفَ، هذا حسَّانُ بنُ ثابتٍ فَحْلٌ مِن فُحولِ الجاهِليَّةِ، فلمَّا جاءَ الإسْلامُ سَقَطَ شِعْرُه).

كذلك اسْتَخدَمَ الإسْلامُ الشِّعْرَ لنَشْرِ الدَّعْوةِ والدِّفاعِ عنِ الدِّينِ فقط، وتَرَكَ سائِرَ فُنونِ الشِّعْرِ، كما أنَّه بذلك جَعَلَ اتِّجاهَ الشِّعْرِ دينيًّا لا مَعْنويًّا، والشِّعْرُ ألْصَقُ بالدُّنيا أكْثَرَ مِنه بالدِّينِ.

هذه هي الأدِلَّةُ والأسْبابُ الَّتي يَأخُذُ بها القائِلونَ بضَعْفِ الشِّعْرِ الإسْلاميِّ، والصَّوابُ أنَّنا إذا وازنَّا بيْنَ الشِّعْرِ الإسْلاميِّ وشِعْرِ فُحولِ الشُّعَراءِ في الجاهِليَّةِ فسنَجِدُ فارِقًا في الجَودةِ والنَّظْمِ، وأنَّ شُعَراءَ الجاهِليَّةِ فاقوا شُعَراءَ الإسْلامِ في بعضِ الأغْراضِ، ولكنَّ هذا لا يَعْني أنَّ الشِّعْرَ الإسْلاميَّ قد انْحَدَرَ مِن القِمَّةِ إلى الحَضيضِ، وأنَّ فَتْرةَ صَدْرِ الإسْلامِ كانَتْ فَجوةً مُنْقطِعةً مَلأها الصَّمْتُ والخُمولُ، وأنَّها خالِيةٌ مِن الفُحولِ والشُّعَراءِ المُجيدينَ، بل إنَّ الشِّعْرَ فيها كانَ قَويًّا، واسِعَ الأغْراضِ، مُتعدِّدَ المَوْضوعاتِ، قَويَّ الأسْلوبِ، مُحْكَمَ النَّسْجِ، تامَّ السَّبْكِ، قَويَّ البِنْيةِ، اسْتَحدَثَ الإسْلامُ فيه أغْراضًا وهذَّبَ فيه أُخرى.

فوَصْفُ الشِّعْرِ في هذه الحِقبةِ الزَّمانيَّةِ بالضَّعْفِ هو تَجاوُزٌ ومَيْلٌ عنِ الصَّوابِ، ويَشهَدُ لِهذا أنَّ شُعَراءَ المُسْلِمينَ كانوا يَفوقونَ شُعَراءَ الجاهِليَّةِ في الأغْراضِ الَّتي دَعَمَها الإسْلامُ وأجَّجَ نيرانَها، كالفَخْرِ والحَماسةِ والهِجاءِ ونَحْوِ ذلك، فما رَدَّ شاعِرٌ مُسلِمٌ على هِجاءِ شاعِرٍ مِن الكُفَّارِ إلَّا ألْجَمَه وأسْكَتَه، وكانَ هِجاؤُه خَيْرًا مِن هِجائِه، رَغْمَ أنَّه ما زالَ على الجاهِليَّةِ، لم يَتقيَّدْ بحُدودِ الإسْلامِ ولم يَنْتَهِ عن دَوافِعِ وبَواعِثِ الشِّعْرِ، كالخَمْرِ والتَّشْبيبِ ونَحْوِ ذلك.

ودَليلُ ذلك أنَّ وَفْدَ تَميمٍ لمَّا أتى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفيهم الأقْرَعُ بنُ حابِسٍ وعُيَيْنةُ بنُ حِصْنٍ وغيرُهما، قالوا: يا مُحمَّدُ، جِئْناك نُفاخِرُك، فأْذَنْ لخَطيبِنا وشاعِرِنا، فأذِنَ لخَطيبِهم فتكلَّمَ، ثُمَّ أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثابتَ بنَ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ فرَدَّ عليه، ثُمَّ قامَ شاعِرُهم الزِّبْرِقانُ بنُ بَدْرٍ، فأنْشَدَ، ثُمَّ قامَ حسَّانُ فرَدَّ عليهم، ثُمَّ خرَجَ الوَفْدُ مِن عنْدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ الأقْرَعُ

لعُيَيْنةَ: أسَمِعْتَ ما سَمِعْتُ، ما سَكَتَ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّ سَقْفَ البَيْتِ سوف يَقَعُ علينا! فقالَ عُيَيْنةُ: أوَجَدْتَ ذلك؟ واللهِ لقدْ تكلَّمَ شاعِرُهم فما سَكَتَ حتَّى أظْلَمَ عليَّ البَيْتُ، وحيلَ بيْني وبيْنَ النَّظَرِ إليك! وقالَ الأقْرَعُ: إنَّ لِهذا الرَّجُلِ لشأنًا، ثُمَّ دَخَلا بعْدَ ذلك في الإسْلامِ!

فلو كانَ الإسْلامُ سَبَبًا لضَعْفِ الشِّعْرِ لتفوَّقَ شاعِرُ بَني تَميمٍ، وهو ما زالَ جاهليًّا لم يُسلِمْ بعْدُ.

فإن كانَتْ قد انْدَثرَتْ دَواعٍ ودَوافِعُ في ظِلِّ الإسْلامِ، فهناك دَواعٍ ودَوافِعُ أُخرى قد نشِطَتْ، وإن كانَ هناك أغْراضٌ أماتَها الإسْلامُ فهناك أغْراضٌ أُخرى اسْتَحدَثَها وأحْياها، وإن كانَ هناك شُعَراءُ قد خمَلَ ذِكْرُهم وضَعُفَ شِعْرُهم فهناك شُعَراءُ أُخَرُ قد فَحُلَ شِعْرُهم واسْتَحكَمَتْ مَلَكتُهم.

وأمَّا مَسألةُ الخَيْرِ والشَّرِّ وأنَّ الشِّعْرَ بابُه الشَّرُّ فهذا أمْرٌ غيْرُ مُسلَّمٍ به؛ فلا يَقبَلُ عَقْلٌ أن يكونَ النَّجاحُ والقُوَّةُ مَقْصورَينِ على مَوْضوعاتٍ مُعيَّنةٍ إذا خَرَجَ عنها الشَّاعِرُ نَزَلَ شِعْرُه ساقِطًا.

ولو كانَ ذلك الأمْرُ صَحيحًا لَما نَبَغَ شِعْرُ الجاهِليِّينَ الَّذين سَخَّروا شِعْرَهم في الخَيْرِ، كزُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمى وأمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ وغيْرِهما؛ فإنَّ أكْثَرَ شِعْرِهما في الحِكْمةِ والإصْلاحِ ونَحْوِ ذلك.

وأمَّا الخَبَرُ الَّذي يُرْوى عن حسَّانَ بنِ ثابتٍ، وهو قَوْلُه: إنَّ الشِّعْرَ يَزينُه الكَذِبُ، فهذا خَبَرٌ مَشْكوكٌ في صِحَّتِه؛ إذ يَتعارَضُ معَ مَذهِبِ حسَّانَ في جَودةِ الشِّعْرِ الَّذي قَرَّرَه بقَوْلِه:

وإنَّ أحْسَنَ بَيْتٍ أنتَ قائِلُـــــه   بَيْتٌ يُقالُ إذا أنْشَدْتَهُ صَدَقـــــــا
وإنَّما الشِّعْرُ لُبُّ المَرْءِ يَعرِضُه   على المَجالِسِ إنْ كَيْسًا وإنْ حُمُقا

وأمَّا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جعَلَ اتِّجاهَ الشِّعْرِ دينيًّا لا دُنيويًّا، فهذا سَبَبٌ في تَقْويةِ الشِّعْرِ لا إضْعافِه؛ فإنَّ الأُدَباءَ اتَّفَقوا على أنَّ أفْضَلَ الشِّعْرِ ما كانَ خارِجًا عن اعْتِقادٍ وصِدْقٍ؛ لهذا كلَّما ضَعُفَتْ عاطِفةُ الشَّاعِرِ أو تَلاشَتْ أثَّرَ ذلك سَلْبًا في الشِّعْرِ، بدَليلِ أنَّ مَدائِحَ الشُّعَراءِ مِن أجْلِ التَّكسُّبِ والعَطايا لا تُضاهي مَدائِحَهم الصَّادِقةَ لمَن يَسْتحقُّونَ المَديحَ؛ ولِذا فإذا كانَ الشَّاعِرُ يَرْجو بشِعْرِه نَصْرَ دينِه ورَفْعَ رايتِه، كانَ ذلك أقْوَى لَعاطِفتِه، وأكْثَرَ إثارةً وتَحْريضًا على تَحْبيرِ الشِّعْرِ وتَحسينِه.

الفصل الثاني والثلاثون: خصائص الشعر الإسلامي

1- مِن حيثُ الألْفاظُ والأساليبُ:

أثَّرَ القُرآنُ الكَريمُ كَثيرًا في الشِّعْرِ الإسْلاميِّ عامَّةً؛ حيثُ وَجَّهَ الشُّعَراءَ والأُدَباءَ إلى اسْتِعمالِ الألْفاظِ البَسيطةِ المُسْتخدَمةِ، وتَرْكِ الألْفاظِ الحُوشيَّةِ الغَريبةِ، كما عَدَلَ بهم إلى رِقَّةِ الأُسْلوبِ وسُهولةِ فَهْمِه، والمَيْلِ عن التَّعْقيدِ في التَّرْكيبِ، فَضْلًا عن تَأثُّرِ الشُّعَراءِ بالقُرآنِ تَأثُّرًا مُباشِرًا مِن خِلالِ اقْتِباسِ كَلِماتِه وألْفاظِه وتَزْيينِ كَلامِهم ببَعضٍ مِن آياتِه وأقْوالِه، غيْرَ أنَّه في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ بَقيَتْ آثارُ ألْفاظِ الشِّعْرِ وأساليبِه على ما كانَتْ عليه في عَهْدِ الشِّعْرِ الجاهِليِّ؛ لقُرْبِ العَهْدِ بيْنَ العَصرَينِ، ولأنَّ جُلَّ شُعَراءِ هذا العَصْرِ مُخَضْرَمونَ عاشوا في الجاهِليَّةِ والإسْلامِ فاسْتَعمَلوا كَثيرًا مِن الألْفاظِ والأساليبِ الَّتي كانوا يَسْتعمِلونَها في الجاهِليَّةِ.

2- مِن حيثُ المَعاني والأفْكارُ:

كانَتْ مَعاني الشُّعَراءِ في هذا الوَقْتِ مَزيجًا بيْنَ المَعاني الجاهِليَّةِ الَّتي وَرِثوها عن العَصْرِ السَّالِفِ والمَعاني الإسْلاميَّةِ الَّتي اكْتَسَبوها مِن النُّصوصِ الدِّينيَّةِ، فهذَّبَ القُرآنُ والسُّنَّةُ بعضَ تلك المَعاني والأفْكارِ، فرخَّصَ في المَدْحِ إذا كانَ صادِقًا، ونَزَعَ مِن الرِّثاءِ التَّشاؤُمَ والتَّسَخُّطَ على قَدَرِ اللهِ، وجَعَلَ الفَخْرَ فَخْرًا بالإسْلامِ والمُسْلِمينَ، لا الفَخْرَ الشَّخْصيَّ ولا القَبَليَّ. كما أنَّه جاءَ بمَعانٍ جَديدةٍ تَتَمثَّلُ في الدَّعْوةِ إلى اللهِ وبَيانِ عاقِبةِ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ في الآخِرةِ، وأحْيا المَعانيَ الَّتي تَتَضمَّنُ الحِكْمةَ وغيْرَها، فجاءَتِ المَعاني مُشرَبةً برُوحِ الإسْلامِ مُكتَسِبةً مِن تَعاليمِه وأفْكارِه ودَعوتِه.

وقد تَميَّزَتْ أفْكارُهم بالدِّقَّةِ في التَّرْتيبِ، على نَحْوٍ قَرَّبَ المَعانيَ الَّتي طَرَقوها إلى الأذْهانِ، وجَعَلَها تَتَمكَّنُ مِن النُّفوسِ والوِجْدانِ، وبما أفادوه مِن مُدارَسةِ كِتابِ اللهِ ومُصاحَبتِهم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

الفصل الثالث والثلاثون: الكتابة في عصر صدر الإسلام

لمَّا جاءَ الإسْلامُ اقْتَضَتْ طَبيعةُ دَعْوتِه الاهْتِمامَ بالكِتابةِ؛ فهي أداةُ حِفْظِ القُرآنِ الكَريمِ معَ حِفْظِ الصَّدْرِ وحُسْنِ الفَهْمِ، ولرَغْبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مُكاتَبةِ المُلوكِ والرُّؤَساءِ ودَعْوتِهم إلى الإسْلامِ، فَضْلًا عن كِتابةِ العُهودِ والمَواثيقِ بيْنَه وبيْنَ سائرِ الدُّوَلِ المُجاوِرةِ له، أو بيْنَه وبيْنَ أهْلِ الذِّمَّةِ الَّذين يَعيشونَ معَه في بِلادِ الإسْلامِ.

ثُمَّ ازْدادَتْ حاجةُ المُسلِمينَ إلى الكِتابةِ والتَّدْوينِ بعْدَ وَفاةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فوَجَبَ جَمْعُ القُرآنِ في المَصاحِفِ بعْدَ اسْتِشهادِ أكْثَرِ القُرَّاءِ في حُروبِ الرِّدَّةِ، كما ظَهَرَتِ الحاجةُ إلى جَمْعِ أحاديثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَوْفًا مِن نِسْيانِها أو ضَياعِها، كما اقْتَضى التَّوَسُّعُ الجُغْرافيُّ لرُقْعةِ الإسْلامِ أن تُوجَدَ المُكاتَباتُ بيْنَ الخَليفةِ وبيْنَ عُمَّالِه وأُمَرائِه.

فنَجَمَ عن كلِّ هذا ثَرْوةٌ نَثْريَّةٌ هائِلةٌ خَلَّفَها عَصْرُ النُّبوَّةِ وزَمانُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ، تَنوَّعَتْ بيْنَ الرَّسائِلِ والمَواثيقِ والعُهودِ والوَصايا ونَحْوِ ذلك، إلَّا أنَّنا نَسْتطيعُ أن نُفرِّقَ بيْنَ خَصائِصِ الكِتابةِ زَمَنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وخَصائِصِها زَمانَ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ؛ فإنَّ الكِتابةَ النَّبويَّةَ لا نَسْتَطيعُ أن نَحكُمَ لها بالصِّفةِ الأدَبيَّةِ؛ فإنَّها لم تَتَعدَّ إيصالَ المَعنى المُرادِ وتَبْليغَه، دونَ مُحاوَلةٍ لتَنْسيقِ الكَلامِ؛ ولِهذا جاءَتْ خالِيةً مِن أساليبِ البَيانِ الفَنِّيِّ، اللَّهُمَّ إلَّا نادِرًا، وإن جاءَتْ فإنَّما هي عَفْوُ الخاطِرِ دونَ القَصْدِ أو التَّكلُّفِ، شأنُها شأنُ الكِتابةِ في العَصْرِ الجاهِليِّ، إلَّا أنَّ الكِتابةَ في عَصْرِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ قد أخَذَتْ خُطوةً عَريضةً في الأُفُقِ، وذلك حينَ كَثُرَ الاعْتِمادُ عليها، وصارَتْ أمْرًا لا غِنى للنَّاسِ عنه، فتَطوَّرَتِ الكِتابةُ وسارَعَتْ إلى الأخْذِ بأقْلامِ البَيانِ، فجاءَتْ بَيانيَّةً شيئًا فشيئًا.

وقد تَنوَّعَتْ صُوَرُ الكِتابةِ في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ، وهي على النَّحْوِ الآتي:

1 - **الرَّسائِلُ:**

اقْتَضَتْ طَبيعةُ الحالِ في الصَّدْرِ الأوَّلِ مِن الدَّعوةِ الإسْلاميَّةِ أن يَنشُرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الإسْلامَ، ويُبلِّغَ الدَّعوةَ إلى مَشارِقِ الأرْضِ ومَغارِبِها؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بُعِثَ للنَّاسِ كافَّةً،

ولم يُبعَثْ لقَوْمِه فقط، فكَتَبَ رَسائِلَ إلى الدُّوَلِ المُجاوِرةِ، يَدْعوهم فيها إلى الإسْلامِ وتَوْحيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ونَبْذِ الشِّرْكِ والكُفْرِ.

ومِن ذلك رِسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ، وكَتَبَ كذلك إلى المُقَوْقِسِ صاحِبِ مِصْرَ، وإلى كِسْرى، وإلى سائِرِ المُلوكِ والرُّؤَساءِ، كما كتَبَ للمُنذِرِ بنِ ساوي العَبْديِّ حينَ قَفَلَ مُنْصرِفًا عن الحُدَيْبيَةِ، فأرْسَلَ رِسالتَه معَ العَلاءِ بنِ الحَضْرَميِّ، فأسْلَمَ المُنذِرُ، وأرْسَلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

ومِن أشْهَرِ الرَّسائِلِ الَّتي أرْسَلَها الخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ ما كَتَبَه عُمَرُ الفاروقُ إلى أبي موسى الأشْعَريِّ. والنَّاظِرُ في تلك الرِّسالةِ يَرى أثَرًا واضِحًا وتَغيُّرًا مَلْحوظًا في أُسلوبِ الكِتابةِ؛ فقدْ أخَذَتِ الأساليبُ الأدَبيَّةُ تَدخُلُ شيئًا فشيئًا، واسْتَعمَلَ الفاروقُ رَضيَ اللهُ عنه الحُجَجَ العَقليَّةَ في الإقْناعِ، وألْفاظَ القُرآنِ والحَديثِ في التَّأثيرِ النَّفْسيِّ.

وقَدْ كَتَبَ عُثْمانُ رَضيَ اللهُ عنه إلى عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنه حينَ كانَ مَحْصورًا، وهي رِسالةٌ غايةٌ في البَلاغةِ والبَيانِ، تَدُلُّ على مَدى البَراعةِ الفَنِّيَّةِ الَّتي وَصَلَتْ إليها الرِّسالةُ في زَمانِ الرَّاشِدينَ، واسْتَعمَلَ فيها عُثْمانُ رَضيَ اللهُ عنه الأمْثالَ والشِّعْرَ للدَّلالةِ على حالِه، وفي آخِرِ ذلك العَصْرِ حينَ احْتَدمَ الخِلافُ بيْنَ عليٍّ ومُعَاوِيةَ رَضيَ اللهُ عنهما تَرى فَنَّ الرَّسائِلِ الأدَبيَّةِ وقد ارْتَقى رُقِيًّا كَبيرًا.

2 – المَواثيقُ والعُهودُ:

كانَ مِن الطَّبيعيِّ وَضْعُ المَواثيقِ والعُهودِ لدَوْلةِ الإسْلامِ النَّاشِئةِ في يَثْرِبَ، ولِهذا فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ كَثيرًا ما يَضَعُ المَواثيقَ والعُهودَ، كما آخى بيْنَ المُهاجِرينَ والأنْصارِ، ووادَعَ اليَهودَ وأقَرَّهم على دينِهم وأمْوالِهم، وشَرَطَ عليهم واشْتَرَطَ لهم، فكانَ نَصُّ تلك العُهْدةِ الَّتي عُرِفَتْ بصَحيفةِ المَدينةِ.

ومِن ذلك أيضًا صُلْحُ الحُدَيْبيَةِ، ونَصُّ المُعاهدةِ الَّذي أمْلاه سُهَيلُ بنُ عَمْرٍو، وكَتَبَه عليٌّ رَضيَ اللهُ عنه، على ما هو مَشْهورٌ عنْدَ أصْحابِ السِّيرةِ والحَديثِ.

ومِن العُهودِ المَشْهورةِ في زَمانِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ "العُهْدةُ العُمَرِيَّةُ"، وهو نَصُّ الصُّلْحِ الَّذي عقَدَه عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه معَ أَهْلِ "إِيْلياءَ" -بَيْتِ المَقدِسِ-.

3 - **الوَصايا:**

لم تكنِ الوَصيَّةُ أمْرًا غَريبًا ولا فَنًّا ابْتكرَه عَصْرُ صَدْرِ الإسْلامِ، بل كانَ مَعْروفًا مُشتَهِرًا بيْنَ النَّاسِ، غيْرَ أنَّ تلك الوَصايا اعْتَمَدَتْ على المُشافَهةِ أكْثَرَ مِن اعْتِمادِها على الكِتابةِ، بخِلافِ الأمْرِ في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ معَ انْتِشارِ الكِتابةِ واحْتِياجِ النَّاسِ إليها للتَّوْثيقِ والتَّأكُّدِ.

ولِهذا نُطالِعُ في كُتُبِ التَّاريخِ وَصيَّةَ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ للمُؤْمِنينَ، أو -بمَعنًى أدَقَّ- اسْتِخلافَه لعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه مِن بعْدِه، كما أنَّ الصَّحابةَ اعْتادوا على كِتابةِ وَصايا لأبْنائِهم وذَويهم، يَعِظونَهم ويَأمرونَهم بالمَعْروفِ ويَنْهونَهم عنِ المُنكَرِ.

الفصل الرابع والثلاثون: أُسْلوبُ الكِتابةِ في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ

تَميَّزَتِ الكِتابةُ النَّثْريَّةُ في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ بعِدَّةِ مُمَيِّزاتٍ اخْتَصَّتْ بها، وهي:

1- السُّهولةُ والوُضوحُ وقَصْدُ إيصالِ المَعنى دونَ التَّنْميقِ، وإن جاءَ ذلك تِباعًا في عُصورِ الرَّاشِدينَ.

2- التَّأَثُّرُ بالقُرآنِ الكَريمِ والاسْتِشهادُ به.

3- الاعْتِمادُ على الحِكَمِ والأمْثالِ والأقْوالِ المَأثورةِ.

4- المَيلُ إلى الإيجازِ الشَّديدِ دونَ الإخْلالِ بالمَعنى.

5- الابْتِعادُ عن السَّجْعِ والمُحسِّناتِ البَديعيَّةِ، وأنَّها إن أتَتْ فعَفْويَّةٌ مِن غيْرِ تكلُّفٍ.

6- الابْتِداءُ دائِمًا بالبَسْملةِ، وكَثيرًا ما تَليها صِيَغُ الحَمْدِ والتَّصْليةِ، وخَتْمُها بالسَّلامِ.

خَصائِصُ النَّثْرِ الفَنِّيِّ في عَصْرِ صَدْرِ الإسْلامِ:

1- أصْبَحَ النَّثْرُ بأنْواعِه أداةَ الدَّعْوةِ ولِسانَ الدَّوْلةِ الإسْلاميَّةِ كافَّةً.

2- تَنبُعُ مَعاني النَّثْرِ الإسلاميِّ مِن مَعينِ النُّبوَّةِ وأدَبِ القُرآنِ الكَريمِ.

3- جاءَتِ المَعاني مُنْتظِمةً والأفْكارُ مُرَتَّبةً؛ فكلُّ كَلِمةٍ لها مُهمَّةٌ تُؤَدِّيها.

4- امْتازَ الأسْلوبُ النَّثْريُّ بحُسْنِ سَبْكِه، وجَمالِ وَصْفِه، وقُوَّةِ نَظْمِه، وإحْكامِ فُصولِه، والْتِئامِ أجْزائِه، وذلك ناتِجٌ عن التَّأثُّرِ بالقُرآنِ والحَديثِ النَّبَويِّ.

5- يَعكِسُ النَّثْرُ في العَصْرِ الإسْلاميِّ صورةَ الحَياةِ في هذا العَصْرِ بما فيها مِن إخْلاصٍ في الدَّعْوةِ، وصِدْقٍ في التَّبْليغِ، وانْتِصاراتٍ في غَزَواتٍ وفِتَنٍ ومَلاحِمَ.

6- امْتازَ النَّثْرُ في هذا العَصْرِ ببُعْدِه عنِ الإغْرابِ، وعَدَمِ اسْتِعمالِ السَّجْعِ إلَّا في القَليلِ النَّادِرِ.

7- يَكثُرُ فيه الاقْتِباسُ مِن القُرآنِ ومِن الحَديثِ النَّبَويِّ، وكانوا يَعُدُّونَ هذا الاقْتِباسَ مِن مَظاهِرِ جَودةِ الكَلامِ.

8- بَعُدَتِ الألْفاظُ عن الغَرابةِ والوَحْشيَّةِ، ونَأتْ عن الابْتِذالِ والرَّكاكةِ، فجاءَتْ وَسَطًا ليسَتْ غَريبةً وَحْشيَّةً، ولا مُبْتذلةً سوقيَّةً.